التمهيد:

بسم الله الرحمن الرحيم (ذلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ)

وبعد، فقد صدق الله وعده إذ قال: (وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد). كان القرآن منذ أول يومه ولا يزال موضع عناية ذوي الأحلام الراجحة والنفوس الطيبة من علماء ونبهاء ملأت بهم الآفاق. كما كان مطمح غواية ذوي الأحقاد الرديئة والأنفس الخبيثة، لم ترعهم شاكلة القرآن الوضيئة، فطفقوا يناوئونه في محاولة مستمرة لغرض الحط من كرامته الرفيعة أو النقص من دعائمه القويمة وهيهات (وَيَأْبى الله إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ). وكان من مضاعفات تلكم المحاولات الفاشلة أن تراكمت هناك (في غياهب التيه) شبهات هي ظلمات بعضها فوق بعض (وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمالَهُ مِن نُورٍ).

والشبهات حول القرآن - في قديمها أو الحديث منها - تتنوع إلى أنحاء:

١- منها ما يعود إلى التشكيك في كونه وحياً مباشرا تلقاه نبي الإسلام من ملكوت أعلى، إما لعدم إمكانه، نظراً لعدم التوائم بين عالمين أحدهما أعلى لطيف والآخر أسفل كثيف وقد أجبنا على ذلك بإمكان الاتصال بالجانب الروحاني (حقيقة الإنسان الذاتية) من الإنسان إذا كان قد بلغ الكمال واستعد روحياً للاتصال بالملأ الأعلى. وإما لزعم أنها ملتقطات التقطها نبي الإسلام من أفواه الرجال (أهل الكتاب) كان يلتقي برجال من أهل الديانات المعروفة في جزيرة العرب في رحلاته وأسفاره إلى مختلف البلاد، بل وفي مكة والحجاز ممن أوى إليها من المعتنقين للمسيحية وأبناء

اليهود. (قالوا أساطيرُ الْأَوَّلِينَ اكتبها فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً). أضف إليه ما كان يستلهم من صميم وعيه المطعم بإيحاءات البيئة التي كان يعيشها، كان يستوحيها من داخل ضميره عندما يختلي بنفسه في غار حراء. فكان يستصفي أحسن ما تلقاه ليبديه وحياً من الله وقرآناً نازلاً من السماء. هكذا فرضوا فيما زعموا من غير برهان أتاهم.

٢- ومنها زعم التأثر بالبيئة وثقافات جاهلية كانت ساطية حينذاك. حسبوا أن في القرآن الشيء الكثير من رسوم وعادات بائدة كانت قد تعارفها العرب و ربما البشرية يومذاك وقد خضع لها القرآن في كثير من تعاليمه وبرامجه، والتي منها ما يبدو غليظاً أو شديداً أو متجافياً للحكمة ويتعافاه العقل الرشيد فيما تقدمت ركب البشرية فيما بعدوأخذوا من عقوبات الإسلام دليلاً على ذلك فيما وهموا!

٣- ومنها ما حسبوه متهافتاً من إيهام التناقض في القرآن، ولو كان من عند الله لم

يوجد فيه هذا الإختلاف هكذا حسبوا حسابهم لا عن مداقة

٤- ومنها احتمال وجود اللحن في القرآن إما تأريخياً أو أدبياً أو متنافياً مع بداهة

العلم، فيما توهموه عبر الخيال!

٥- ومنها احتمال التحريف في نصه الكريم والذي يذهب بحجيته وإمكان الاستناد إليه، فيما حسبه أهل الظاهر المقلدة ممن كانت تهمهم الرواية وتعوزهم الدراية إلى غير ذلك من تساويل شيطانية حيكت حول هذا الكتاب الإلهي العزيز الذي (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حميد).

((تاريخ النص القرآني)).(تاريخ القران) للمستشرق نولدكه

ويشير العنوان المختار للكتاب إلى تطبيق تام لمنهج نقد العهد القديم على القرآن الكريم، فمدرسة نقد العهد القديم اهتمت بمسألة الوصول إلى تاريخ نصوص العهد القديم بداية بتاريخ النص التوراتي، وانطلاقاً إلى تحديد تواريخ لنصوص العهد القديم الأخرى. وقد تحول كتاب نولدكه هذا إلى مصدر أساسي لكل الدراسات الاستشراقية عن القرآن الكريم. ويؤكد الدكتور محمد توفيق حسين هذه الحقيقة بقوله: ((وكتاب نولدكه وتلامذته هو الأساس لكل الدراسات اللاحقة في الموضوع، ويتضمن الخطوط العامة الجوهرية لمنهج المستشرقين في الدراسات القرآنية... وكل ما ينشر من كتب ومقالات عن القرآن يعتمد على الخطوط الجوهرية العامة لمنهج نولدكه وتلامذته الذي أصبح يُعرف بـ ((مدرسة نولدكه للدراسات القرآنية)) وقد اعتمدت المقالات الأساسية عن القرآن الكريم في دائرة المعارف البريطانية، ودائرة المعارف الإسلامية، ودائرة معارف بوردا الفرنسية على التعريف بالقرآن وفقاً لمنهج نولدكه الساعي إلى البحث عما يسمى بـ ((مصادر القرآن)). وهو هدف استشراقي يسعى إلى وضع تاريخ للقرآن، كما تم وضع تاريخ للتوراة ولبقية أسفار العهد القديم(١).

وتتضح خطورة منهج نولدكه المعتمد على نظرية المصادر الخاصة بالعهد القديم في أن الادعاء بأن القرآن له تاريخ يؤدي بالضرورة إلى ادعاء آخر بأن الإسلام دين له تاريخ، ومر بمراحل نشأة وتطور مثله في ذلك مثل الأديان الوضعية، وأن العقيدة الإسلامية عقيدة متطورة في التاريخ. وهذه الفكرة هي محور كل الكتابات الاستشراقية التي استخدمت مصطلح ((تاريخ)) مع القرآن

الكريم ومع الإسلام مثل بعض العناوين الاستشراقية الشائعة: ((تاريخ القرآن))، ((تاريخ الإسلام))، تاريخ العقيدة الإسلامية، تطور العقيدة الإسلامية، تاريخ النص القرآني، أصل سور القرآن.. وغيرها من العناوين الاستشراقية الدالة على النشأة والتطور للنص القرآني، وللإسلام عقيدة وشريعة. وهكذا تتبلور نظرية نولدكه في أن القرآن له تاريخ كنص، وبالتالي فالدين المعتمد على هذا النص دين تاريخي له نشأة وتطور انعكست في العقيدة والشريعة. وبشكل أكثر حدة تسعى نظرية نولدكه ومدرسته إلى القول بتعدد مصادر القرآن، ومن ثم الحكم بأن القرآن ليس وحياً كما يعتقد المسلمون.

وتعدّ نظرية نولدكه أخطر نظريات الاستشراق على الإطلاق. فهي تهدف إلى رفض الوحي القرآني، ورد القرآن الكريم إلى مصادر إنسانية لتحقيق الهدف الأكبر وهو إثبات تطور الإسلام وعقيدته. وقد اعتبر هذا الهدف الأساسي لكل الدراسات الاستشراقية حول القرآن الكريم. وهو هدف مرفوض إسلامياً رفضاً مطلقاً.

نقد منهج مدرسة نولدكه:

وقد وقع نولدكه ومدرسته في عدة أخطاء منهجية بعضها أخطاء استشراقية تقليدية، وبعضها مرتبط بنظرية المصادر في حالة تطبيقها على القرآن الكريم.

والخطأ الأول هو خطأ التعميم الذي وقع فيه المستشرقون، ومن بينهم نولدكه. وهذا الخطأ المنهجي الاستشراقي ينبع من الاعتقاد في أن ما ينطبق على اليهودية والنصرانية ينطبق بالضرورة على الإسلام، وأن ما ينطبق على النصوص الدينية المقدسة في اليهودية والنصرانية صالح للتطبيق على الإسلام، وذلك في تجاهل تام ومقصود لاختلاف طبيعة الإسلام عن اليهودية والنصرانية، واختلاف طبيعة القرآن الكريم عن طبيعة العهد القديم والعهد الجديد. ويخلط المستشرقون عادة بين خطأ التعميم وخطأ الإسقاط، أي إسقاط وضع الديانتين السابقتين ووضع كتبهما المقدسة على وضع الإسلام والقرآن الكريم. وتشير طبيعة الإسلام والقرآن إلى اختلاف جوهري فالقرآن الكريم ليس له تاريخ، وليس هناك في حالة القرآن الكريم ما يمكن أن نُسميه بتاريخ النص القرآني. وزمن الوحي القرآني لا يكوّن تاريخاً. وهذا الزمن محصور بين بداية الوحي ونهايته، وهي فترة لا تسمح بتكوين تاريخ للقرآن الكريم يمكن أن نقابله بتاريخ التوراة، أو تاريخ العهد القديم، أو تاريخ العهد الجديد. فزمن الوحي لم يتجاوز ثلاثة وعشرين عاماً وهي فترة تلقِّي الوحي في بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي المقابل نجد أن تاريخ النص التوراتي يقترب من ثمانمائة عام محصورة

بين زمن نزول الوحي على موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وزمن إخضاع هذا الوحي للكتابة والتدوين على يد عزرا الكاتب في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. وهي فترة طويلة جداً تحوَّل فيها الوحي التوراتي من وحي مكتوب إلى روايات شفوية انتهت إلى عملية تحرير وتدوين في القرن الخامس قبل الميلاد. فنحن هنا أمام نص له تاريخ تغير فيه شكل النص من نص مكتوب إلى نص شفوي على مدى ثمانية قرون سمحت بكل أنواع التحريف والتبديل قبل أن تخضع الروايات الشفوية لعملية تحرير وتدوين على يد عزرا الكاتب(١)

وهناك قول يهودي مأثور يشير إلى هذا التاريخ الطويل للنص وهو يؤكد على أهمية عمل عزرا في تاريخ النص التوراتي حيث يقول بأنه إذا كان موسى (عليه السلام) هو الذي تلقى الوحي التوراتي فإن عزرا هو الذي دوَّنه وثبَّته(١). وما ينطبق على التوراة ينطبق على بقية أسفار العهد القديم. فكل سفر له تاريخه الطويل كنص قبل إغلاق العهد القديم، وتثبيت نصوصه. وهي عملية انتهت في القرن الثاني قبل الميلاد فيصبح تاريخ العهد القديم كنص يصل إلى ما يقرب من اثني عشر قرناً من الزمان. أما بالنسبة للعهد الجديد فلكل إنجيل من الأناجيل الأربعة تاريخه كنص وعلاقته بنصوص الأناجيل الأخرى(٢). إذن، لا وجه للمقارنة على الإطلاق بين نصوص العهد القديم والعهد الجديد والنص القرآني فيما يتعلق بمسألة تاريخ النص إذ لا توجد فترة زمنية فاصلة بين زمن نزول الوحي وحفظه وتدوينه فقد استغرق نزول الوحي القرآني وحفظه وتدوينه ثلاثة وعشرين عاماً، وهي لا تمثل تاريخاً على الإطلاق لأنها هي نفسها فترة نزول الوحي القرآني. وقد تمت هذه العملية في ضوء وعي وإدراك إسلامي قوي بما حدث لكتب الوحي السابقة من عمليات تحريف وتبديل، وتحذير قرآني وتذكير مستمر بوضع التوراة والإنجيل حتى لا يقع المسلمون في الخطأ نفسه. وقد كونت الآيات القرآنية التي تناولت هذا الموضوع نظرية قرآنية في نقد التوراة والإنجيل، أسست نظرية المصادر في قوله تعالى: ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) [النساء: ٨٢] فالاختلاف والتناقض يشيران إلى التدخل الإنساني، وبالتالي تعدد المصادر. وأشارت الآيات القرآنية إلى كيفية إدخال المادة الإنسانية على الوحي الإلهي. في مثل قوله تعالى: ((وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)) [المائدة: ٤١] وقوله تعالى: ((فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ)) [المائدة: ١٣] وقوله تعالى: ((فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)) [البقرة: ٧٩] وقوله تعالى: ((فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا

عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)) [البقرة: ٥٩] وقوله تعالى : ((وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)) [البقرة: ٧٥] وتمثل نظرية التحريف والتبديل شكلين من أشكال النقد. فهي تعطي نقداً دينياً يؤكد على حدوث التغيير في النص، وبالتالي في الدين المعتمد على النص. وفي الوقت نفسه يشير مصطلحا ((التحريف والتبديل)) إلى طبيعة العملية التي تم التغيير من خلالها. فهما مصطلحان يجمعان بين مواصفات النقد الديني والنقد الأدبي. وقد أصبح هذان المصطلحان من أسس الجهاز النقدي Apparatus Criticus لمدرسة فلهاوزن في نقد العهد القديم. وقد استعارهما فلهاوزن من القرآن الكريم في بناء نظرية تعدد المصادر وفي نقده النصي للتوراة Textual Criticism، وأيضاً في نقده المصدري Source ، وأخيراً في نقده لمادة النصوص، فيما يعرف بالنقد العالي(Higher Criticism).

وإذا كانت نظرية ((تاريخ النص)) وبالتالي تعدد مصادره لا تنطبق على القرآن الكريم، فإن النتيجة الدينية الناتجة عن النقدين النصي والمصدري لم تحدث مع الإسلام. ونقصد بالنتيجة الدينية أنه إذا كان للنص تاريخ فالدين الناشئ عن النص له كذلك تاريخ. وهذا هو وضع اليهودية والنصرانية. فتاريخ التوراة، وأسفار العهد القديم، وأسفار العهد الجديد انعكس بالضرورة على اليهودية والنصرانية. فهما ديانتان تاريخيتان. وكل ديانة منهما لها تاريخ ينقسم إلى عصور. وبالنسبة لليهودية وحسب التقسيمات اليهودية لتاريخها هناك ما يعرف بيهودية التوراة، ويهودية الأنبياء، ويهودية العهد القديم ككل، ويهودية التلمود بعد انتهاء عصر العهد القديم. وهذه أقسام داخل إطار اليهودية التقليدية الحاخامية، أو يهودية الربانين. ولا تدخل في هذه الأقسام أو العصور اليهوديات التي طورتها الفرق اليهودية مثل يهودية السامريين والقرائين قديماً، والفرق اليهودية الحديثة والمعاصرة. واختلفت هذه الفرق حول حجم النص الديني المقدس بين الاعتراف بأسفار موسى الخمسة فقط، والاعتراف بالعهد القديم ككل(٢). وبالنسبة للنصرانية، فقد أدى تاريخ النص إلى تطور عدة نصرانيات من بينها ديانة عيسى عليه السلام، والنصرانية اليهودية Jewish Christianity، ونصرانية الأناجيل المختلفة، ونصرانية بولس، ونصرانيات المذاهب الأرثوذكسية، والكاثوليكية، والبروتستانتية.

وفي مقابل هذا التطور العقدي الناتج عن تاريخ النص، والمؤدّي إلى تطور تاريخ لليهودية وتاريخ للنصرانية لا يوجد تاريخ للإسلام. فهناك توافق تام بين القرآن كنص والإسلام كدين. ولا يوجد إسلام خارج حدود النص القرآني، وبالتالي لا يوجد تطور عقدي، أو عصور للإسلام. وهنا يجب عدم الخلط بين الإسلام، وتاريخ المسلمين. فالتاريخ الموجود هو تاريخ المسلمين، وليس تاريخ

الإسلام. والإسلام ليس مقسماً إلى عصور، كما أنه ليس مرتبطاً بالشعوب. فليس هناك ما يمكن تسميته بإسلام في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، أو إسلام الخلفاء الراشدين، أو إسلام أموي، أو عباسي، أو عثماني، أو غير ذلك. كما لا يوجد ما يسمى بإسلام أفغاني، أو إسلام هندي، أو إسلام إفريقي، أو إسلام عربي، أو فارسي أو تركي، أو غير ذلك. فهذه التقسيمات لا توجد إلا في أذهان المستشرقين الذين يُسقطون أوضاع اليهودية والنصرانية على الإسلام(١). وهكذا نجد أن نظرية نولدكه ومدرسته لا تنطبق على القرآن، أو على الإسلام لانعدام الصفة الأساسية التي اعتمدت عليها هذه المدرسة وهي الصفة التاريخية للنص، وللدين المستند إلى النص.[١]

الملاحظات النقدية على اتجاهات موضوعات الدراسات القرآنية عند المستشرقين أفرزت النتائج المهمة التالية:

١ - إن إهمال الدراسات القرآنية عند المستشرقين أدى بالضرورة إلى عدم فهم القرآن الكريم نتيجة عدم التعمق في دراسته فضلاً عن إهمال الدرس القرآني، والتوقف في دراسة القرآن عند ترجمة معانيه إلى اللغات الأوروبية دون التعمق في مضامينه ومفاهيمه، وتحقيق صلة القرآن الكريم بالإسلام.

٢ - إن غلبة نقد القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية أدت بالتالي إلى غياب الفهم. وقد عكس هذا خطأ منهجياً استشراقياً وهو أن النقد يتطلب فهم الموضوع المنقود، وهذا يعني أن الفهم يجب أن يسبق النقد. وهذا لم يحدث في معظم الدراسات الاستشراقية حول القرآن الكريم حيث سيطر القصد إلى النقد على محاولة الفهم. والنتيجة التي انتهينا إليها هي نتيجة غير صادقة علمياً لأنها لم تلتزم بالأمانة العلمية الساعية إلى فهم الشيء قبل نقده. وغلبة النقد على الفهم ما هو إلا تعبير صادق عن سوء النية في الدراسات الاستشراقية حول القرآن الكريم لأنه لو صدقت النيات لتبدَّل حال الدراسات القرآنية إلى الأفضل.

٣ - أدى عدم فهم القرآن الكريم إلى نتيجة تالية وهي عدم فهم الإسلام عند المستشرقين. فالإسلام لا يمكن أن يُعرف معرفة علمية جيدة إلا من خلال معرفة القرآن الكريم وفهمه. وسقوط الاستشراق وفشله في فهم القرآن أدى إلى هذا السقوط والفشل المُرَوّع في فهم الإسلام.

٤- أن اهتمام المستشرقين بقضية مصدر القرآن الكريم، وكنتيجة لرفضهم للوحي الإلهي كمصدر للقرآن الكريم، انعكس على درس الإسلام عند المستشرقين. فقد انشغل معظمهم بدراسة مصدر الإسلام، وانتقل الحكم المصدري على القرآن الكريم إلى حكم مصدري على الإسلام بأنه مستمد

[١] دراسة القران الكريم عند المستشرقين في ضوء علم نقد الكتاب المقدس ١٢-١٩

من اليهودية والنصرانية طالما أن مصدر الإسلام الأساسي، وهو القرآن الكريم، مأخوذ من المصادر اليهودية والنصرانية. ولم ينجح المستشرقون في تكوين رؤية موضوعية للإسلام تنظر إليه كدين مستقل استقلالاً تاماً عن الديانتين السابقتين عليه، ولا ترد المشترك بينهما وبين الإسلام إلى تأثير لهما على الإسلام.

٥ - ومن النتائج المهمة التي توصلت إليها هذه الدراسة أن القلة القليلة جداً من المستشرقين الذين اهتموا بالدرس القرآني وتعمقوا فيه انتهى بهم الأمر إلى اتخاذ موقف معتدل من القرآن الكريم لا يخلو من الانبهار بالقرآن الكريم والتعاطف مع محتوياته.

٦- أن عدداً من المستشرقين الذين درسوا القرآن الكريم وتعمقوا فيه، وبعض من ترجموا معاني القرآن الكريم تأثروا بالقرآن الكريم، وأعلنوا إسلامهم كنتيجة مباشرة للاتصال المباشر بالقرآن الكريم، ودراسته، والتعمق فيه. ومن هؤلاء نذكر ج. ل. بروكهارت (١٧٨٤-١٨١٧) المستشرق الإنجليزي الذي قرأ القرآن وتفقه في الدين الإسلامي واعتنقه عام ١٨٠٩. وكذلك ر. ف. بودلي Bodley الذي آمن بسلامة العقيدة الإسلامية وضمن هذا في مقدمة كتابه: الرسول، حياة محمد (لندن ١٩٤٦)(١). والمستشرق فريتس كرنكوف1952-1872) Krenkow) الذي اعتنق الإسلام وسمى نفسه محمد سالم الكرنكوي. وله في الدراسات القرآنية تفسير ثلاثين سورة لابن خالويه (١٩٣٦)(٢). وكذلك المستشرق مارمادوك وليم بكثول (١٨٧٥-١٩٣٦) الذي ترجم معاني القرآن الكريم (١٩٣٠) وكان قد أعلن إسلامه وأصبح إماماً للمسلمين في لندن بعد رحلة إلى مصر حيث استدعاه اللورد كرومر عام ١٩٠٤ ثم سافر إلى تركيا وعاد إلى مصر معلناً إسلامه. وتعدّ ترجمته لمعاني القرآن الكريم من أفضل الترجمات الإنجليزية(٣). ومن هؤلاء المستشرقين أيضاً المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس (١٨٨٤-١٩٧٩) الذي أعلن إسلامه في مدينة دلهي (١٩٣١). ويعتبر المستشرق النمساوي ليوبولد فايس أشهر المستشرقين الذين ترجموا القرآن الكريم إلى الإنجليزية وأسلم وتسمى محمد أسد، وأسس بمعاونة وليم بكثول (الذي أسلم أيضاً) مجلة الثقافة الإسلامية في حيدراباد الدكن (١٩٢٧) للرد على أخطاء المستشرقين(٤). ومن المستشرقين الفرنسيين أسلم جينون رينيه Guenon René (المتوفى ١٩٥١) في عام ١٩٢٧ وتسمى باسم عبد الواحد يحيي(٥)

وكان سبب إسلامه الآيات القرآنية المرتبطة بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، وكذلك أسلم المستشرق دينه1929-1861) Et Dinet) وتسمى بناصر الدين وحج في عام ١٩٢٨(١)، وله

كتاب: ((أشعة خاصة بنور الإسلام)) وكتاب: ((محمد رسول الله)) وكتاب: ((الحج إلى بيت الله الحرام)).

٧ - أن دراسات إيفالد، ونولدكه، وفلهاوزن، وجولدتسهير المهتمة بتاريخ النص القرآني أدت إلى حدوث تأثير سلبي على الدراسات القرآنية عند المستشرقين انتهى إلى جمود الدرس القرآني، وربما توقفه عند المستشرقين. وأول مظاهر هذا التأثير السلبي عدم تجاوز الاهتمام بتاريخ النص والبحث في مصادره إلى دراسة مضمون القرآن الكريم، وأفكاره، ومحتوياته الدينية والأخلاقية. كما أن دراسة تاريخ النص ومصادره تجمدت هي الأخرى. ومن المظاهر السلبية الأخرى لهذا التأثير السلبي أن درس الإسلام نفسه عند المستشرقين لم يتجاوز حدود المسألة التاريخية المرتبطة بما سماه المستشرقون ((تاريخ الإسلام)) ودراسة نشأته، وتطوره. ونادراً ما نجد تحولا استشراقياً من دراسة موضوعات النشأة والتطور إلى دراسة المضامين الدينية والأخلاقية للإسلام. وهكذا ندرت الدراسات الاستشراقية العلمية الجادة حول محتويات القرآن الكريم، ودار المستشرقون في فلك فلهاوزن ومدرسته، واهتم بعضهم لما يقرب من قرن كامل بتكملة عمل نولدكه في تاريخ النص، ودار فريق آخر من المستشرقين في فلك ما أتى به جولدتسهير من جديد في مسألة)) تطور ((العقيدة الإسلامية. وهذا كله يصب في النهاية في موضوع واحد يرتبط بما يسمى عندهم بـ ((مصادر القرآن، وتطور الإسلام)) كما أن الانشغال الاستشراقي بالترتيب التاريخي لسور القرآن الكريم وآياته هو في حقيقة الأمر انشغال بالشكل على حساب المضمون.

٨- من الملاحظات والنتائج السابقة نخرج بحكم علمي على الدراسات القرآنية عند المستشرقين بأنها دراسات قليلة إلى حد كبير، ولا تتناسب مع أهمية القرآن الكريم، وقيمته الدينية، وكونه الأساس الأول في فهم الإسلام، بل إنها لا تتناسب مع اهتمام الاستشراق بمجالات أخرى في الدراسات الإسلامية مثل مجال السيرة النبوية، أو التاريخ الإسلامي، أو الفرق الإسلامية. وهذا الحكم العلمي يتجاوز قلة الدراسات القرآنية إلى حكم علمي آخر بضعف هذه الدراسات لأنها لم تهتم بالمضمون القرآني وركزت على دراسة مسائل تاريخية لنص ليس له تاريخ محاولة اختلاق تاريخ للقرآن الكريم يدور حول نشأة وتطور للنص القرآني متأثرة في هذا التوجه بنصوص اليهودية والنصرانية التي ضاعت أصولها، واستغرق تثبيت نصوصها بعد إعادة تحريرها مئات السنين انتقلت فيها من نص أصلي مكتوب إلى مادة شفوية تم إخضاعها للكتابة فتحولت إلى نص مكتوب بعد عشرات الصياغات وعمليات التحرير.

وهناك بالتأكيد عدة أسباب لضعف الدراسات القرآنية عند المستشرقين منها:

أ - الاهتمام بنقد القرآن على حساب فهم القرآن الكريم.

ب - ضعف مستوى كثير من المستشرقين في اللغة العربية الأمر الذي لم يمكنهم من دراسة القرآن الكريم وفهمه(١).

جـ - تأخر ترجمة معاني القرآن الكريم فإنَّ أول ترجمة إلى اللاتينية تمت عام ١١٤٢ ميلادية، كما تأخرت الترجمات إلى اللغات الأوروبية الحديثة حتى القرنين التاسع عشر والعشرين مع الأخذ في الاعتبار ضعف الترجمات المبكرة منها إلى اللغات الأوروبية الحديثة.

د - انهيار الاستشراق التقليدي في الدراسات الإسلامية خلال معظم القرن العشرين، وانتشار وظيفة الخبراء في الشؤون العربية والإسلامية الذين تنقصهم بشدة الخلفية الدينية الإسلامية والمعرفة باللغة العربية(١).

هـ - الاهتمام الاستشراقي الأوسع بدراسة واقع العالم الإسلامي السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي لأسباب سياسية، واقتصادية، والاتجاه إلى دراسة ما يسمى بالإسلام السياسي على حساب الدراسات الدينية التقليدية(٢).

و - الانصراف إلى دراسة الآداب الشرقية، وفنون الحضارة الإسلامية والواقع الثقافي المعاصر للمسلمين لسهولة هذه المجالات مقارنة بالدراسات القرآنية وما تتطلبه من معرفة قوية بالدين الإسلامي وباللغة العربية الفصحى.

ز - الاهتمام الاستشراقي باللغة العامية وباللهجات على حساب العربية الفصحى، والبعد بالتالي عن لغة القرآن الكريم وعلوم الدين الإسلامي.

ح - الأخطاء المنهجية الاستشراقية التقليدية في دراسة القرآن الكريم وعلومه، ومن بينها عدم استقلال دراسة القرآن الكريم عن دراسات نقد العهد القديم والعهد الجديد، وتوظيف القرآن الكريم لأهداف التنصير، وإسقاط النظريات النقدية التاريخية والأدبية بل والأحداث السياسية الجارية على فهم القرآن الكريم ودراسته، كما يفعل بعض المستشرقين الدارسين للقرآن الكريم في ضوء أحداث سبتمبر وظاهرة الإرهاب وغيرها من الأحداث العنيفة الجارية على الساحة السياسية العالمية.[٢]

---

[٢] المصدر نفسه ٥٣-٥٨

نتيجة جمع القرآن الكريم:

وكانت نتيجة هذه الجهود المباركة، من التوثيق والحفظ، أن الله عز وجل سلَّم القرآن الكريم من التحريف، وهذه الأمة هي الوحيدة التي احتفظت بكتاب ربها سليماً من التحريف والتبديل، والنقص، وهو كتاب واحد، ولا يوجد مسلم يؤمن بالله و اليوم الآخر يقول بخلاف ذلك، واتفاق جميع نسخ القرآن الخطية على مرِّ العصور يدل على أن كتاب المسلمين كتاب واحد، قال موريس بوكاي: ((يقول الأستاذ حميد الله: توجد اليوم بطشقند وإستانبول نسخ تنسب إلى عثمان، وإذا نحينا جانباً ما قد يكون من أخطاء النسخ، فإن أقدم الوثائق المعروفة في أيامنا و التي وجدت في كل العالم الإسلامي تطابق كل منها الأخرى تماماً، كذلك الأمر أيضًا بالنسبة للمخطوطات التي في حوزتنا في أوربا، [توجد في حوزتنا بالمكتبة الوطنية بباريس قطع يرجع تاريخها حسب تقدير الخبراء إلى القرن الثامن و التاسع الميلاديين، أي إلى القرنين الثاني و الثالث الهجريين]، إن هذا الحشد من النصوص القديمة المعروفة متطابقة كلها فيما عدا بعض النقاط الطفيفة جدا التي لا تغير شيئاً من المعنى العام للنص برغم أن السياق قد يقبل أحياناً أكثر من إمكانية للقراءة، وذلك يرجع إلى أن الكتابة القديمة أبسط من الكتابة الحالية))(١). فالتاريخ يقدِّم لنا شهادة صادقة على عدم تحريف القرآن الكريم، فقد وثق ابتداءً في العهد النبوي حفظاً في الصدور، وكتابة في الصحف، وامتازت الكتابة بالتوثيق والدقة والضبط، وفي العهد الراشدي وباتفاق الصحابة رضي الله عنهم قاموا بنسخ المصحف، وفق ضوابط صارمة، ثم في الجمع الثالث تم نَسْخُ نُسَخٍ متعددةٍ وإرسالها إلى العالم الإسلامي، مع أن حفظة كتاب الله كانوا ما زالوا على قيد الحياة، ثم ازداد عدد الحفظة، ولقد بهر جلال الحق بعض المستشرقين فاعترف بالفضل لذويه، يقول المستشرق (وليم موير): ((إن المصحف الذي جمعه عثمان، قد تواتر انتقاله من يد ليد، حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة، بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه تغيير على الإطلاق، في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المنزل الموجود معنا، والذي يرجع إلى الخليفة المنكوب عثمان الذي مات مقتولاً))، وتقول المستشرقة الإيطالية (لورافيشيا فاغليري)...: ((فإلى الكتاب العزيز الذي لم يحرفه قط لا أصدقاؤه، ولا أعداؤه، لا المثقفون، ولا الأميون، ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان، والذي لا يزال إلى اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط آخر الأنبياء حملة الشرائع، إلى هذا

المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذٍ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب))(١).

وفي ختام هذا المبحث رأينا أن الله قد قيض لكتابه كل عوامل الحفظ، وهي:

١ـ أن يسَّر الله حفظ القرآن، فحفظه جم غفير من الصحابة رضي الله عنهم، ومازال الحفاظ في ازدياد من ذلك العصر إلى وقتنا.

٢ـ تم جمع القرآن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم في زمن أبي بكر وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ، من طريقين في المقام الأول: الحفظ، و في المرتبة الثانية: الكتابة.

٣ـ لما رضي الصحابة رضي الله عنهم جميعاً بما قام به أبو بكر وعثمان رضي الله عنهما نسب بعض العلماء الجمع الثاني والثالث إلى الصحابة جميعاً لكونهم رضوا بذلك، قال الإمام البغوي: ((فيه البيان الواضح أن الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من غير أن زادوا فيه، أو نقصوا منه شيئاً، والذي حملهم على جمعه ما جاء بيانه في الحديث، وهو أنه كان مفرقاً في العسب، واللِّخاف، وصدور الرجال، فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته، ففزعوا فيه إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوه إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم، فأمر بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقِّن أصحابه، ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل ـ صلوات الله عليه ـ إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في السور التي يُذكر فيها كذا))(١)، ولما نقل هذا الجمع القرآن الكريم جمعاً عن جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب، وبذلك تثبت الحجة، وينقطع العذر، ويتبين أن هذا القرآن الذي بأيدينا هو جميع كتاب الله الذي أنزله، وأمر بحفظه، وإثباته و الرجوع إليه، لأنه قد علم أن الكذب متعذرٌ ممتنع على مثلهم، فوجب العلم بصحة ما نقلوه، وسقوط كل رواية جاءت ضعيفة، أو من جهة الآحاد بخلاف ذلك.

٤ـ من الذين كتبوا القرآن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقام بكتابته مرة أخرى في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وتولى رئاسة اللجنة التي كتبت القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، وهذا مما يؤكد حفظ القرآن الكريم.

٥ـ تم كتابة القرآن وفق ضوابط علمية صارمة، ووصوله إلينا كان عن طريق التواتر.

٦ـ استمرت دولة الإسلام، ولم يفقد القرآن كما فقدت الكتب الأخرى، ولم يضطر المسلمون إلى إخفاء كتابهم كما أخفى غيرهم كتابهم.

٧ـ اتفاق جميع نسخ القرآن الخطية على أن كتاب المسلمين كتاب واحد.

لما علمنا بالتواتر ما هيأ الله لكتابه من عوامل الحفظ، واتفاق الصحابة رضي الله عنهم الذين عايشوا الوحي ونزوله على ذلك وهم الأمناء الصادقون الحريصون عليه، جعلنا نجزم باستحالة الزيادة فيه، أو النقصان منه.[٣]

دعوى أن القرآن مقتبس من التوراة:

الشبهة التى تمسكوا بها وُرُودُ مواضع بينها تشابه فى كل من التوراة والقرآن الكريم. ومن أبرزها الجانب القصصى. وبعض المواضع التشريعية تمسكوا بها ، وقالوا: إن القرآن مقتبس من التوراة ، وبعضهم يضيف إلى هذا أن القرآن اقتبس مواضع أخرى من " الأناجيل ".

* الرد على هذه الشبهة:

كيف يتحقق الاقتباس عموماً ؟

الاقتباس عملية فكرية لها ثلاثة أركان:

الأول: الشخص المُقتَبَس منه.

الثانى: الشخص المُقتَبِس (اسم فاعل).

الثالث: المادة المُقتَبَسَة نفسها (اسم مفعول).

والشخص المقُتَبَس منه سابق إلى الفكرة ، التى هى موضوع الاقتباس ، أما المادة المقُتَبَسَة فلها طريقتان عند الشخص المُقتَبِس ، إحداهما: أن يأخذ المقتبس الفكرة بلفظها ومعناها كلها أو بعضها. والثانية: أن يأخذها بمعناها كلها أو بعضها كذلك ويعبر عنها بكلام من عنده.

[٣] المصدر نفسه ٤٥-٤٨

والمقتبس فى عملية الاقتباس أسير المقتبس منه قطعاً ودائر فى فلكه ؛ إذ لا طريق له إلى معرفة ما اقتبس إلا ما ذكره المقتبس منه. فهو أصل ، والمقتبس فرع لا محالة.

وعلى هذا فإن المقتبس لابد له وهو يزاول عملية الاقتباس من موقفين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن يأخذ الفكرة كلها بلفظها ومعناها أو بمعناها فقط.

وثانيهما: أن يأخذ جزءً من الفكرة باللفظ والمعنى أو بالمعنى فقط.

ويمتنع على المقتبس أن يزيد فى الفكرة المقتبسة أية زيادة غير موجودة فى الأصل ؛ لأننا قلنا: إن المقتبس لا طريق له لمعرفة ما اقتبس إلا ما ورد عند المقتبس منه ، فكيف يزيد على الفكرة والحال أنه لا صلة له بمصادرها الأولى إلا عن طريق المقتبس منه.

إذا جرى الاقتباس على هذا النهج صدقت دعوى من يقول إن فلاناً اقتبس منى كذا.

أما إذا تشابه ما كتبه اثنان ، أحدهما سابق والثانى لاحق ، واختلف ما كتبه الثانى عما كتبه الأول مثل:

١- أن تكون الفكرة عند الثانى أبسط وأحكم ووجدنا فيها مالم نجده عند الأول.

٢- أو أن يصحح الثانى أخطاء وردت عند الأول ، أو يعرض الوقائع عرضاً يختلف عن سابقه.

فى هذه الحال لا تصدق دعوى من يقول إن فلانا قد اقتبس منى كذا.

ورَدُّ هذه الدعوى مقبول من المدعى عليه ، لأن المقتبس (اتهامًا) لما لم يدر فى فلك المقتبس منه (فرضاً) بل زاد عليه وخالفه فيما ذكر من وقائع فإن معنى ذلك أن الثانى تخطى ما كتبه الأول حتى وصل إلى مصدر الوقائع نفسها واستقى منها ما استقى. فهو إذن ليس مقتبساً وإنما مؤسس حقائق تلقاها من مصدرها الأصيل ولم ينقلها عن ناقل أو وسيط.

وسوف نطبق هذه الأسس التى تحكم عملية الاقتباس على ما ادعاه القوم هنا وننظر:

هل القرآن عندما اقتبس كما يدعون من التوراة كان خاضعاً لشرطى عملية الاقتباس وهما: نقل الفكرة كلها ، أو الاقتصار على نقل جزء منها فيكون بذلك دائراً فى فلك التوراة ، وتصدق حينئذ دعوى القوم بأن القرآن (معظمه) مقتبس من التوراة ؟

أم أن القرآن لم يقف عند حدود ما ذكرته التوراة فى مواضع التشابه بينهما ؟ بل:

١ عرض الوقائع عرضاً يختلف عن عرض التوراة لها.

٢ أضاف جديداً لم تعرفه التوراة فى المواضع المشتركة بينهما.

٣ صحح أخطاء " خطيرة " وردت فى التوراة فى مواضع متعددة.

٤ انفرد بذكر " مادة " خاصة به ليس لها مصدر سواه.

٥ فى حالة اختلافه مع التوراة حول واقعة يكون الصحيح هو ما ذكره القرآن. والباطل ما جاء فى التوراة بشهادة العقل والعلم إذا كان الاحتمال الأول هو الواقع فالقرآن مقتبس من التوراة..

أما إذا كان الواقع هو الاحتمال الثانى فدعوى الاقتباس باطلة ويكون للقرآن فى هذه الحالة سلطانه الخاص به فى استقاء الحقائق ، وعرضها فلا اقتباس لا من توراة ولا من إنجيل ولا من غيرهما.

لا أظن أن القارئ يختلف معنا فى هذه الأسس التى قدمناها لصحة الاتهام بالاقتباس عموماً.

وما علينا بعد ذلك إلا أن نستعرض بعض صور التشابه بين التوراة والقرآن ، ونطبق عليها تلك الأسس المتقدمة تاركين الحرية التامة للقارئ سواء كان مسلماً أو غير مسلم فى الحكم على ما سوف تسفر عنه المقارنة أنحن على صواب فى نفى الاقتباس عن القرآن ؟.

والمسألة بعد ذلك ليست مسألة اختلاف فى الرأى يصبح فيها كل فريق موصوفاً بالسلامة ، وأنه على الحق أو شعبة من حق.

وإنما المسألة مسألة مصير أبدى من ورائه عقيدة صحيحة توجب النجاة لصاحبها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

أو عقيدة فاسدة تحل قومها دار البوار يوم يقدم الله إلى ما عملوا من عمل فيجعله هباءً منثوراً.

الصورة الأولى من التشابه بين التوراة والقرآن. لقطة من قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

تبدأ هذه اللقطة من بدء مراودة امرأة عزيز مصر ليوسف (عليه السلام) ليفعل بها الفحشاء وتنتهى بقرار وضع يوسف فى السجن. واللقطة كما جاءت فى المصدرين هى:

أولاً: نصوصها فى التوراة: (١)

" وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت: اضطجع معى ، فأبى وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدى لا يعرف معى ما فى البيت وكل ما له قد دفعه إلى يدى ، ليس هو فى هذا البيت أعظم منى. ولم يمسك عنى شيئا غيرك لأنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطئ إلى الله ، وكانت إذ كلمت يوسف يومًا فيوما أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها..

ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معى فترك ثوبه فى يدها وخرج إلى خارج ، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه فى يدها ، وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة:

" انظروا قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا دخل إلىّ ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم ، وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج. فَوَضَعَتْ ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل إلىَّ العبد العبرانى الذى جئت به إلينا ليداعبنى وكان لما رفعت صوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى خارج فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك أن غضبه حمى..

فأخذ سيدُه يوسف ووضعه فى بيت السجن المكان الذى كان أسرى الملك محبوسين فيه ".

ثانيا : نصوص القرآن الأمين

(وَرَاوَدَتْهُ التى هوَ فى بيتها عن نفسه وغلّقتِ الأبوابَ وقالتْ هيت لك قال معاذ الله إنهُ ربى أحسنَ مثواى إنهُ لايُفلحُ الظالمون *ولقد هَمَّتْ به وَهَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرفَ عنهُ السوءَ والفحشاء إنه من عبادنا المخلَصين * واستبقا الباب وقدت قميصه من دُبرٍ وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاءُ من أراد بأهلكَ سوءًا إلا أن يُسجن أو عذابُ أليم * قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصَه قُد من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُد من دُبرٍ فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قُد من دُبرٍ قال إنه من كيدكُنَّ إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبكِ إنك كنتِ من الخاطئ... (٢) ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات لَيَسْجنُنَّهُ حتى حين) (٣).

تلك هى نصوص الواقعة فى المصدرين:

وأدعو القارئ أن يقرأ النصين مرات قراءة متأنية فاحصة. وأن يجتهد بنفسه فى التعرف على الفروق فى المصدرين قبل أن يسترسل معنا فيما نستخلصه من تلك الفروق. ثم يكمل ما يراه من نقص لدينا أو لديه فقد يدرك هو ما لم ندركه ، وقد ندرك نحن ما لم يدركه وربَّ قارئ أوعى من كاتب..

الفروق كما نراها

التوراة: القرآن الأمين

المراودة حدثت مرارًا ونُصح يوسف لامرأة سيده كان قبل المرة الأخيرة: المراودة حدثت مرة واحدة اقترنت بعزم المرأة على يوسف لينفذ رغبتها.

تخلو من الإشارة إلى تغليق الأبواب وتقول إن يوسف ترك ثوبه بجانبها وهرب وانتظرت هى قدوم زوجها وقصت عليه القصة بعد أن أعلمت بها أهل بيتها.: يشير إلى تغليق الأبواب وأن يوسف هم بالخروج فَقَدَّتْ ثوبه من الخلف وحين وصلا إلى الباب فوجئا بالعزيز يدخل عليهما فبادرت المرأة بالشكوى فى الحال.

لم يكن يوسف موجوداً حين دخل العزيز ولم يدافع يوسف عن نفسه لدى العزيز.: يوسف كان موجوداً حين قدم العزيز ، وقد دافع عن نفسه بعد وشاية المرأة ، وقال هى راودتنى عن نفسى.

تخلو من حديث الشاهد وتقول إن العزيز حمى غضبه على يوسف بعد سماع المرأة: يذكر تفصيلاً شهادة الشاهد كما يذكر اقتناع العزيز بتلك الشهادة ولومه لامرأته وتذكيرها بخطئها. وتثبيت يوسف على العفة والطهارة.

تقول إن العزيز فى الحال أمر بوضع يوسف فى السجن ولم يعرض أمره على رجال حاشيته.

يشير إلى أن القرار بسجن يوسف كان بعد مداولة بين العزيز وحاشيته.

تخلو من حديث النسوة اللاتى لُمْنَ امرأة العزيز على مراودتها فتاها عن نفسه ، وهى فجوة هائلة فى نص التوراة.

يذكر حديث النسوة بالتفصيل كما يذكر موقف امرأة العزيز منهن ودعوتها إياهن ملتمسة أعذارها لديهن ومصرة على أن ينفذ رغبتها

هذه ستة فروق بارزة بين ما يورده القرآن الأمين ، وما ذكرته التوراة. والنظر الفاحص فى المصدرين يرينا أنهما لم يتفقا إلا فى " أصل " الواقعة من حيث هى واقعة وكفى ، ويختلفان بعد هذا فى كل شىء. على أن القرآن قام هنا بعملين جليلى الشأن:

أولهما: أنه أورد جديداً لم تعرفه التوراة ومن أبرز هذا الجديد:

(١) حديث النسوة وموقف المرأة منهن.

(٢) شهادة الشاهد الذى هو من أهل امرأة العزيز.

ثانيهما: تصحيح أخطاء وقعت فيها التوراة ومن أبرزها:

(١) لم يترك يوسف ثوبه لدى المرأة بل كان لابساً إياه ولكن قطع من الخلف.

(٢) غياب يوسف حين حضر العزيز وإسقاطها دفاعه عن نفسه.

اعتراض وجوابه:

قد يقول قائل: لماذا تفترض أن الخطأ هو ما فى التوراة ، وأن الصواب هو ما فى القرآن ؟! أليس ذلك تحيزاً منك للقرآن ؛ لأنه كتاب المسلمين وأنت مسلم ؟ ولماذا تفترض العكس ؟ وإذا لم تفترض أنت العكس فقد يقول به غيرك ، وماتراه أنت لا يصادر ما يراه الآخرون. هذا الاعتراض وارد فى مجال البحث. وإذن فلابد من إيضاح.

والجواب:

لم نتحيز للقرآن لأنه قرآن. ولنا فى هذا الحكم داعيان:

الأول: لم يرد فى القرآن - قط - ما هو خلاف الحق ؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وقد ثبتت هذه الحقيقة فى كل مجالات البحوث التى أجريت على " مفاهيم " القرآن العظيم فى كل العصور. وهذا الداعى وحده كافٍ فى تأييد ما ذهبنا إليه.

الثانى: وهو منتزع من الواقعة نفسها موضوع المقارنة وإليك البيان: كل من التوراة والقرآن متفقان على " عفة يوسف "وإعراضه عن الفحشاء. ثم اختلفا بعد ذلك:

فالتوراة تقول: إن يوسف ترك ثوبه كله لدى المرأة وهرب والقرآن يقول: إنه لم يترك الثوب بل أمسكته المرأة من الخلف ولما لم يتوقف يوسف عليه السلام اقتطعت قطعة منه وبقيت ظاهرة فى ثوبه.

فأى الروايتين أليق بعفة يوسف المتفق عليها بين المصدرين ؟! أن يترك ثوبه كله ؟! أم أن يُخرق ثوبه من الخلف ؟!

إذا سلمنا برواية التوراة فيوسف ليس " عفيفاً " والمرأة على حق فى دعواها ؛ لأن يوسف لا يخلع ثوبه هكذا سليماً إلا إذا كان هو الراغب وهى الآبية.

ولا يقال إن المرأة هى التى أخلعته ثوبه ؛ لأن يوسف رجل ، وهى امرأة فكيف تتغلب عليه وتخلع ثوبه بكل سهولة ، ثم لما يمتنع تحتفظ هى بالثوب كدليل مادى على جنايته المشينة ؟!

وهل خرج يوسف " عريانًا " وترك ثوبه لدى غريمته..؟!

والخلاصة أن رواية التوراة فيها إدانة صريحة ليوسف وهذا يتنافى مع العفة التى وافقت فيها القرآن الأمين.

أما رواية القرآن فهى إدانة صريحة لامرأة العزيز ، وبراءة كاملة ليوسف عليه السلام .

لقد دعته المرأة إلى نفسها ففر منها. فأدركته وأمسكته من الخلف وهو ما يزال فاراً هارباً من وجهها فتعرض ثوبه لعمليتى جذب عنيفتين إحداهما إلى الخلف بفعل المرأة والثانية إلى الأمام بحركة يوسف فانقطع ثوبه من الخلف.

وهذا يتفق تماماً مع العفة المشهود بها ليوسف فى المصدرين ولهذا قلنا: إن القرآن صحح هذا الخطأ الوارد فى التوراة.

.. فهل القرآن مقتبس من التوراة ؟!

فهل تنطبق على القرآن أسس الاقتباس أم هو ذو سلطان خاص به فيما يقول ويقرر ؟.

المقتبس لا بد من أن ينقل الفكرة كلها أو بعضها. وها نحن قد رأينا القرآن يتجاوز هذه الأسس فيأتى بجديد لم يذكر فيما سواه ، ويصحح خطأ وقع فيه ما سواه.

فليس الاختلاف فيها اختلاف حَبْكٍ وصياغة ، وإنما هو اختلاف يشمل الأصول والفروع. هذا بالإضافة إلى إحكام البناء وعفة الألفاظ وشرف المعانى (٤).

إن الذى روته التوراة هنا لا يصلح ولن يصلح أن يكون أساساً للذى ذكره القرآن. وإنما أساس القرآن هو الوحى الصادق الأمين. ذلك هو مصدر القرآن " الوضىء " وسيظل ذلك هو مصدره تتساقط بين يديه دعاوى الباطل ومفتريات المفترين فى كل عصر ومصر.

الصورة الثانية من صور التشابه بين التوراة والقرآن

قصة هابيل وقابيل ابنى آدم

نصوص التوراة:

" حدث من بعد أيام أن قابين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ، ومن سمانها ، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قابين. وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قابين جداً وسقط وجهه. فقال الرب لقابين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك ؟ إن أحسنت أفلا رفع ؟؟. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها ، وأنت تسود عليها. وكلم قابين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا فى الحقل أن قابين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقابين أين هابيل أخوك فقال لا أعلم أحارس أنا لأخى ؟ فقال ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صارخ إلىَّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك متى عملت الأرض ؟؟ تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون فى الأرض فقال قابين للرب: ذنبى أعظم من أن يحتمل أنك قد طردتنى اليوم على وجه الأرض ، ومن وجهك أختفى وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض فيكون كل من وجدنى يقتلنى فقال له الرب: لذلك كل من قتل قابين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقابين علامة لكى لا يقتله كل من وجده. فخرج قابين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن " (٥).

نصوص القرآن الأمين

(واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبلُ الله من المتقين * لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسطٍ يدى إليك لأقتلك إنى أخافُ الله ربَّ العالمين * إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين* فطوعت له نفسهُ قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غرابًا يبحث فى الأرض ليُرِيَهُ كيف يوارى سوءة أخيه * قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارىَ

سوءة أخى فأصبح من النادمين * من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون) (٦).

الفروق بين المصدرين

اتفق المصدران حول نقطتين اثنتين لا ثالث لهما واختلفا فيما عداهما. اتفقا فى: مسألة القربان. وفى قتل أحد الأخوين للآخر. أما فيما عدا هاتين النقطتين فإن ما ورد فى القرآن يختلف تماماً عما ورد فى التوراة ، وذلك على النحو الآتى:

التوارة/القرآن الأمين

تسمى أحد الأخوين بقابين وهو " القاتل " والثانى " هابيل " كما تصف القربانين وتحدد نوعهما./ لايسميهما ويكتفى ببنوتهما لآدم كما اكتفى بذكر القربانين ولم يحددهما.

تروى حواراً بين قابين والرب بعد قتله أخاه ،وتعلن غضب الرب على قابين وطرده من وجه الرب إلى أرض بعيدة./ لا يذكر حواراً حدث بين القاتل وبين الله ، ولا يذكر أن القاتل طرده الله من وجهه إلى أرض بعيدة ، إذ ليس على الله بعيد.

التوراة تخلو من أى حوار بين الأخوين./ يذكر الحديث الذى دار بين ابنى آدم ويفصل القول عما صدر من القتيل قبل قتله وتهديده لأخيه بأنه سيكون من أصحاب النار إذا قتله ظلماً..

لا مقابل فى التوراة لهذه الرواية ولمْ تبين مصير جثة القتيل ؟! / يذكر مسألة الغراب ، الذى بعثه الله لِيُرى القاتل كيف يتصرف فى جثة أخيه ، ويوارى عورته.

تنسب الندم إلى " قابين " القاتل لما هدده الله بحرمانه من خيرات الأرض ، ولا تجعله يشعر بشناعة ذنبه./ يصرح بندم " القاتل " بعد دفنه أخيه وإدراكه فداحة جريمته.

لا هدف لذكر القصة فى التوراة إلا مجرد التاريخ. فهى معلومات ذهنية خالية من روح التربية والتوجيه. /يجعل من هذه القصة هدفاً تربوياً ويبنى شريعة القصاص العادل عليها. ويلوم بنى إسرائيل على إفسادهم فى الأرض بعد مجىء رسل الله إليهم.

أضف إلى هذه ما تحتوى عليه التوراة من سوء مخاطبة " قابين" الرب ، فترى فى العبارة التى فوق الخط: " أحارس أنا لأخى " فيها فظاظة لوصدرت من إنسان لأبيه لعد عاقًّا جافًّا فظًّا غليظًّا فكيف تصدر من " مربوب " إلى " ربه " وخالقه..؟!

ولكن هكذا تنهج التوراة فلا هى تعرف " قدر الرب " ولا من تنقل عنه حواراً مع الرب.

ولا غرابة فى هذا فالتوراة تذكر أن موسى أمر ربه بأن يرجع عن غضبه على بنى إسرائيل ، بل تهديده إياه سبحانه بالاستقالة من النبوة إذا هو لم يستجب لأمره.

والواقع أن ما قصَّهُ علينا القرآن وهو الحق من أمر ابنى آدم مختلف تماماً عما ورد فى التوراة فى هذا الشأن.

فكيف يقال: إن القرآن اقتبس هذه الأحداث من التوراة وصاغها فى قالب البلاغة العربية ؟!

إن الاختلاف ليس فى الصياغة ، بل هو اختلاف أصيل كما قد رأيت من جدول الفروق المتقدم.

والحاكم هنا هو العقل فإذا قيل: إن هذه القصة مقتبسة من التوراة قال العقل:

* فمن أين أتى القرآن بكلام الشقيق الذى قتل مع أخيه ، وهو غير موجود فى نص التوراة التى يُدعى أنها مصدر القرآن ؟!

* ومن أين أتى القرآن بقصة الغراب الذى جاء ليُرى القاتل كيف يوارى سوءة أخيه وهى غير واردة فى التوراة المُدَّعى أصالتها للقرآن ؟!

* ولماذا أهمل القرآن الحوار الذى تورده التوراة بين " الرب " وقابين القاتل وهذا الحوار هو هيكل القصة كلها فى التوراة ؟!

إن فاقد الشىء لا يعطيه أبداً ، وهذا هو حكم العقل. والحقائق الواردة فى القرآن غير موجودة فى التوراة قطعاً فكيف تعطى التوراة شيئاً هى لم تعرف عنه شيئاً قط..؟!

لا.. إن القرآن له مصدره الخاص به الذى استمد منه الوقائع على وجهها الصحيح ، ومجرد التشابه بينه وبين التوراة فى " أصل الواقعة " لا يؤثر فى استقلال القرآن أبداً.

الصورة الثالثة من صورالتشابه بين التوراة والقرآن مقارنة بين بعض التشريعات

المحرمات من النساء

قارَنَّا فيما سبق بين بعض المسائل التاريخية التى وردت فى كل من التوراة والقرآن الأمين. وأثبتنا بأقطع الأدلة أن القرآن له سلطانه الخاص به فيما يقول ويقرر ، ورددنا دعوى أن القرآن مقتبس من التوراة. وبَيَّنَّا حكم العقل فى هذه الدعوى كما أقمنا من الواقع " المحكى " أدلة على ذلك.

ونريد هنا أن نقارن بين بعض المسائل التشريعية فى المصدرين ؛ لأنهم يقولون: إن المسائل والأحكام التشريعية التى فى القرآن لا مصدر لها سوى الاقتباس من التوراة.

وقد اخترنا نص المحرمات من النساء فى التوراة لنقابله بنص المحرمات من النساء فى القرآن الحكيم ليظهر الحق.

النص فى المصدرين

أولاً: فى التوراة:

" عورة أبيك وعورة أمك لا تكشف. إنها أمك لا تكشف عورتها. عورة امرأة أبيك لا تكشف. إنها عورة أبيك. عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة فى البيت ، أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها. عورة ابنة ابنك أو ابنة بنتك لا تكشف عورتها إنها عورتك. عورة بنت امرأة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف عورتها إنها أختك. عورة أخت أبيك لا تكشف إنها قريبة أبيك. عورة أخت أمك لا تكشف إنها قريبة أمك عورة أخى أبيك لا تكشف ، إلى امرأته لا تقرب إنها عمتك. عورة كنتك لا تكشف. إنها امرأة ابنك لا تكشف عورتها.

عورة امرأة أخيك لا تكشف إنها عورة أخيك. عورة امرأة ، وبنتها لا تكشف ، ولا تأخذ ابنة ابنتها أو ابنة بنتها لتكشف عورتها إنهما قريبتاها. إنه رذيلة. ولا تأخذ امرأة على أختها للضر لتكشف عورتها معها فى حياتها (٧).

ثانياً: فى القرآن الحكيم:

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف إنه كان فاحشة ومقتًا وساء سبيلا * حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما والمحصنات من النساء..) (٨).

هذان هما النصان فى المصدرين. نص التوراة ، ونص القرآن الحكيم. فما هى أهم الفروق بينهما ياترى ؟!

وقبل إجراء المقارنة نفترض صحة النص التوراتى وخلوه من التحريف إذ لا مانع أن يكون هذا النص فعلاً مترجماً عن نص أصلى تشريعى خلا مترجمه من إرادة تحريفه.

والمهم هو أن نعرف هل يمكن أن يكون نص التوراة هذا أصلاً اقتبس منه القرآن الحكيم فكرة المحرمات من النساء ، علماً بأن النص التوراتى قابل إلى حد كبير لإجراء دراسات نقدية عليه ، ولكن هذا لا يعنينا هنا.

الفروق بين المصدرين:

التوراة:

١- لا تقيم شأنًا للنسب من جهة الرضاعة.

٢- تحرم نكاح امرأة العم وتدعوها عمة.

٣- تحرم نكاح امرأة الأخ لأخيه.

٤- لا تذكر حرمة النساء المتزوجات من رجال آخرين زواجهم قائم.

٥- تجعل التحريم غالباً للقرابة من جهة غير الزوج مثل قرابة الأب الأم العم ٠٠٠ وهكذا.

القرآن الأمين:

١- يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب.

٢- لا يحرم نكاح امرأة العم ولا يدعوها عمة.

٣- لا يحرم نكاح امرأة الأخ لأخيه إذا طلقها أو مات عنها أخوه.

٤- يحرم نكاح المتزوجات فعلاً من آخرين زواجاً قائماً ويطلق عليهن وصف المحصنات من النساء.

٥- يجعل التحريم لقرابة الزوج ممن حرمت عليه. أو قرابة زوجته أحياناً.

هذه الفروق الواضحة لا تؤهل النص التوراتى لأن يكون أصلاً للنص القرآنى ، علميًّا ، وعقليًّا ، فللنص القرآنى سلطانه الخاص ومصدره المتميز عما ورد فى التوراة. وإلا لما كان بين النصين فروق من هذا النوع المذكور.

وقفة مع ما تقدم:

نكتفى بما تقدم من التوراة وإن كانت التوراة مصدراً ثَرَاً لمثل هذه المقارنات ، ولو أرخينا عنان القلم لما وقفنا عند حد قريب ولتضاعف هذا

الحجم مئات المرات. ومع هذا فما من مقارنة تجرى بين التوراة وبين القرآن إلا وهى دليل جديد على نفى أن يكون القرآن مقتبساً من كتاب سابق عليه ، فالقرآن وحى أمين حفظ كلمات الله كما أنزلت على خاتم النبيين (وقد رأينا فى المقارنات الثلاث المتقدمة أن القرآن فوق ما يأتى به من جديد ليس معروفاً فى سواه إنه يصحح أخطاء وقعت فيما سواه وهذا هو معنى " الهيمنة " التى خَصَّ الله بها القرآن فى قوله تعالى: (مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه) (٩).

فالأمور التى لم يلحقها تحريف فى التوراة جاء القرآن مصدقاً لها أو هو مصدق لكل من التوراة والإنجيل بالصفة التى أنزلها الله عليهما قبل التحريف والتبديل. أما الأمور التى حُرفت ، وتعقبها القرآن فقصها قصًّا صحيحاً أميناً ، وصحح ما ألحقوه بهما من أخطاء ، فذلك هو سلطان " الهيمنة " المشهود للقرآن بها من منزل الكتاب على رسله. فالقرآن هو كلمة الله " الأخيرة " المعقبة على كل ما سواها ، وليس وراءها معقب يتلوها ؛ لأن الوجود الإنسانى ليس فى حاجة مع وجود القرآن إلى غير القرآن. كما أن الكون ليس فى حاجة مع الشمس إلى شمس أخرى تمده بالضوء والطاقة بعد وفاء الشمس بهما.

العهد الجديد:

ولنأخذ صورة مقارنة من العهد الجديد أيضًا حيث يختلف عن العهد القديم وذلك لأن نص الإنجيل الذى سندرسه يقابله من القرآن نصان كل منهما فى سورة مما يصعب معه وضع النص الإنجيلى فى جدول مقابلا بالنصين القرآنيين. ولهذا فإننا سنهمل نظام الجدول هنا ونكتفى بعرض النصوص والموازنة بينها والموضوع الذى سنخضعه للمقارنة هنا هو بشارة زكريا عليه السلام بابنه يحى عليه السلام وذلك على النحو الآتى:

الصورة الرابعة من الإنجيل والقرآن

بشارة زكريا ب " يحيى " (عليهما السلام)

النص الإنجيلى:

" لم يكن لهما يعنى زكريا وامرأته ولد. إذ كانت اليصابات يعنى امرأة زكريا عاقراً.وكان كلاهما متقدمين فى أيامهما فبينما هو يكهن فى نوبة غرفته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر ، وكان كل جمهور الشعب يصلى خارجاً وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لاتخف يا زكريا ؛ لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ولداً وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح وابتهاج. وكثيرون سيفخرون بولادته ؛ لأنه يكون عظيماً أمام الرب. وخمراً ومسكراً لا يشرب ، ومن بطن أمه يمتلئ بروح القدس ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم ، ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء.والعصاة إلى فكر الأبرار ، لكى يهئ للرب شعباً مستعدًّا. فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا و أنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها..؟!

فأجاب الملاك وقال: أنا جبرائيل الواقف قدام الله. وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا. وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه فى الهيكل. فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل. فكان يومئ إليهم. وبقى صامتاً.." (١٠).

النصوص القرآنية:

(١) سورة آل عمران:

(هنالِكَ دعا زكريا ربَّهُ قال رب هب لى من لدُنك ذريةً طيبةً إنك سميعُ الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يُبشرك بيحيى مصدقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبيًّا من الصالحين * قال رب أنى يكون لى غلامٌ وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلِكَ الله يفعلُ ما يشاء * قال ربِّ اجعل لى آية قال آيتك ألا تُكلم الناسَ ثلاثةَ أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار) (١١).

(٢) سورة مريم:

(ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربَّه نداءً خفيًّا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليًّا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربِّ رضيًّا * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا * قال رب أَنَّى يكون لى غلام وكانتً امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيًّا * قال كذلكَ قال ربكَ هو علىَّ هينٌ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويًّا * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًّا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا * وحناناً من لدنَّا وزكاةً وكان تقيًّا * وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيًّا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا) (١٢). ذلك هو نص الإنجيل. وذان هما نصا القرآن الأمين. والقضية التى نناقشها هنا هى دعوى " الحاقدين " أن القرآن مقتبس من الأناجيل كما ادعوا قبلا أنه مقتبس من التوراة. وندعو القارئ أن يراجع النص الإنجيلى مرات ، وأن يتلو النصوص القرآنية مرات ، ويسأل نفسه هذا السؤال:

هل من الممكن علميًّا وعقليًّا أن يكون النص الإنجيلى مصدرًا لما ورد فى القرآن الأمين ؟!

إن المقارنة بين هذه النصوص تسفر عن انفراد النصوص القرآنية بدقائق لا وجود لها فى النص الإنجيلى. ومن أبرز تلك الدقائق ما يلى:

أولاً: فى سورة آل عمران:

(أ) تقدم على قصة البشارة فى" آل عمران" قصة نذر امرأة عمران ما فى بطنها لله محرراً. وهذا لم يرد فى النص الإنجيلى.

(ب) الإخبار بأنها ولدت أنثى " مريم " وكانت ترجو المولود ذكرا وهذا لم يأت فى النص الإنجيلى.

(ج) كفالة زكريا للمولودة "مريم " ووجود رزقها عندها دون أن يعرف مصدره والله سبحانه وتعالى أعلم سؤاله إياها عن مصدره. وهذا بدوره لم يرد فى النص الإنجيلى.

(د) القرآن يربط بين قصة الدعاء بمولود لزكريا وبين قصة مولودة امرأة عمران. وهذا لا وجود له فى النص الإنجيلى.

(ه) دعاء زكريا منصوص عليه فى القرآن وليس له ذكر فى النص الإنجيلى.

ثانياً: فى سورة مريم:

(أ) ما رتبه زكريا على هبة الله له وليًّا ، وهو أن يرثه ويرث من آل يعقوب. ولم يرد هذا فى النص الإنجيلى.

(ب) السبب الذى حمل زكريا على دعاء ربه وهو خوفه الموالى من ورائه والنص الإنجيلى يخلو من هذا.

(ج) كون زكريا أوحى لقومه بأن يسبحوا بكرة وعشيًّا. ولا وجود لهذا فى النص الإنجيلى.

(د) الثناء على المولود " يحيى " من أنه بار بوالديه عليه سلام الله يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه حيًّا ورد فى القرآن ولا مقابل له فى النص الإنجيلى.

هذا كله جديد خاص بالقرآن لا ذكر له فى سواه. وهذا يعنى أن القرآن قد صور الواقعة المقصوصة تصويراً أمينًا كاملاً.

وهذه هى المهمة الأولى التى تعقب بها القرآن المهيمن ما ورد فى الإنجيل المذكور.

وبقيت مهمة جليلة ثانية قام بها القرآن المهيمن نحو النص الإنجيلى ، كما قام بمثلها نحو النصوص التوراتية المتقدمة. وتلك المهمة هى: تصحيح الأخطاء التى وردت فى النص الإنجيلى.

ومن ذلك:

(أ) النص الإنجيلى يجعل الصمت الذى قام بزكريا عقوبة له من الملاك.

فصحح القرآن هذه الواقعة ، وجعل الصمت استجابة لدعاء زكريا ربه. وقد حرص على هذا النصان القرآنيان معاً. ففى آل عمران (قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً وفى مريم: (قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا).

فالصمت فكان تكريما لزكريا عليه السلام من الله ، وليس عقوبة من الملاك ، وقد انساق بعض مفسرى القرآن الكريم وراء هذا التحريف الإنجيلى فقال: إن الصمت كان عقوبة لزكريا ، ولكن من الله لا من الملاك. وها نحن نرفض هذا كله سواء كان القائل به مسلما أو غيرمسلم.

فما هو الذنب الذى ارتكبه زكريا حتى يعاقب من الله أو حتى من الملاك ؟!

هل إقراره بكبر سنه وعقر امرأته هو الذنب ؟!

لقد وقع هذا من إبراهيم عليه السلام حين بشر بإسحق ، ووقع من سارة حين بشرت به فلم يعاقب الله منهما أحداً. وقد وقع هذا من " مريم " حين بُشِّرَتْ بحملها بعيسى ولم يعاقبها الله عليه. فما السر فى ترك إبراهيم وسارة ومريم بلا عقوبة وإنزالها بزكريا وحده مع أن الذى صدر منه صدر مثله تماماً من غيره.

أفى المسألة محاباة..؟! كلا.. فالله لا يحابى أحداً.

إن أكبر دليل على نفى هذا القول هو خلو النصوص القرآنية منه ، وليس هذا تعصباً منا للقرآن. وإنما هو الحق ، والمسلك الكريم اللائق بمنزلة الرسل عند ربهم. إن الصمت الذى حل بزكريا كان بالنسبة لتكليم الناس ، ومع هذا فقد ظل لسانه يلج بحمد الله وتسبيحه فى العشى والإبكار كما نص القرآن الأمين.

(ب) النص الإنجيلى يحدد مدة الصمت بخروج زكريا من الهيكل إلى يوم أن ولد يحيى.

وهذا خطأ ثانٍ صححه القرآن المهيمن فجعل مدته ثلاثة أيام بلياليهن بعد الخروج من المحراب.

(ج) النص الإنجيلى يجعل البشارة على لسان ملاك واحد ، بينما النصان القرآنيان يجعلانها على لسان جمع من الملائكة: (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) (١٣).

(يا زكريا إنا نبشرك بغلام..) (١٤). وهذا خطأ ثالث وقع فيه النص الإنجيلى فصححه القرآن الأمين.

(د) النص الإنجيلى يجعل التسمية ب " يحيى " يوحنا من اختيار زكريا بيد أن الملاك قد تنبأ بها.

وهذا خطأ رابع صححه القرآن الأمين فجعل التسمية من وحى الله إلى زكريا: (.. اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) (١٥).

(ه) النص الإنجيلى يقول: " إن زكريا حين جاءه الملاك وقع عليه خوف واضطراب ".

وقد خلا النص القرآنى من هذا.. فدل خلوه منه على أنه لم يقع.

ذلك أن القرآن الحكيم عَوَّدَنَا فى قَصِّهِ للوقائع المناظرة لهذه الواقعة أن يسجلها إذا حدثت ولا يهملها ، بدليل أنه قد نَصَّ عليها فى واقعة السحرة مع موسى عليه السلام فقال: (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) (١٦). وقال فى شأنه كذلك عند انقلاب العصى حية لأول مرة: (فلما رآها تهتز كأنها جَانٌّ وَلَّى مُدبِراً ولم يُعَقِّبْ) (١٧). وحكاها عن إبراهيم عليه السلام حين جاءته الملائكة تبشره فقال حكاية عن إبراهيم لضيوفه: (إنا منكم وجلون) (١٨). وحكاها عن مريم حين جاءها

الملك: (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) (١٩). وحِرْصُ القرآن على ذكر هذا الانفعال (الخوف ، إذا حدث) يدل على أن خلوه منه بالنسبة لزكريا دليل على أنه لم يقع منه خوف قط ، وهذا " الخلو " يعتبر تصحيحاً لما ورد فى الإنجيل من نسبة حدث إلى زكريا هو فى الواقع لم يصدر منه. فهذه خمسة أخطاء قام بتصحيحها القرآن الأمين نحو نصوص الإنجيل المذكورة هنا فى المقارنة. وبهذا نقول:

إن القرآن أدى هنا فى تعقبه للنص الإنجيلى مهمتين جليلتين:

الأولى: تصوير الواقعة المقصوصة تصويراً أميناً كاملاً.

الثانية: تصحيح الأخطاء الواردة فى النص الإنجيلى المقارن.

وقفة أخيرة مع دعوى الاقتباس:

موضوع الدعوى كما يروج لها المبشرون أن القرآن اقتبس من الكتاب المقدس كل قَصَصِهِ التاريخى. والواقعة التى هى موضوع دعوى الاقتباس هنا هى حادثة تاريخية دينية محددة ببشارة زكريا عليه السلام بيحيى عبد الله ورسوله ووثائق تسجيلها هما: الإنجيل ، ثم القرآن الأمين. وصلة الإنجيل بالواقعة المقصوصة أنه سجلها فرضًا بعد زمن وقوعها بقليل ؛ لأن عيسى كان معاصراً ليحيى عليهما السلام وصلة القرآن الأمين بها أنه سجلها بعد حدوثها بزمن طويل " حوالى سبعمائة سنة ". وقرب الإنجيل من وقوع الحادثة المقصوصة ، وبُعد القرآن الزمنى عنها يقتضى إذا سلمنا جدلاً بدعوى الاقتباس المطروحة أن يأتى الاقتباس على إحدى صورتين:

أولاهما: أن يقتبس القرآن جزءًا مما ورد من القصة الكلية فى الإنجيل. وتظل القصة فيه ناقصة عما هى عليه فى المصدر المقتبس منه (الإنجيل) على حسب زعمهم.

ثانيهما: أن يقتبس القرآن القصة كلها كما هى فى الإنجيل بلا نقص ولا زيادة ، سواء أخذها بألفاظها أو صاغها فى أسلوب جديد (البلاغة العربية كما يدعون) ، بشرط أن يتقيد بالمعانى الواردة فى المصدر المقتبس منه ؛ لأن الفرض قائم (حتى الآن) على أن القرآن لم يكن له مصدر يستقى منه الواقعة غير الإنجيل المقتبس منه.

ومحظور على القرآن عملا بهذه القيود التى تكتنف قضية الاقتباس للوقائع التاريخية من مصدرها الأوحد أن يأتى بجديد أو يضيف إلى الواقعة ما ليس فى مصدرها الأوحد.

فماذا صنع القرآن إذن ؟

هل اقتبس من الإنجيل جزءًا من الواقعة ؟ أم الواقعة كلها ؟!

دائراً فى فلك الإنجيل دورة ناقصة أو دورة كاملة ؟!

لو كان القرآن قد فعل هذا: اقتبس جزءاً من الواقعة كلها ، وَ لَوْ مع صياغة جديدة لم تغير من المعنى شيئا ؛ لكان لدعوى الاقتباس هذه ما يؤيدها من الواقع القرآنى نفسه. ولما تردد فى تصديقها أحد. ولكننا قد رأينا القرآن لم يفعل شيئًا مما تقدم. لم يقتبس جزءاً من الواقعة ولا الواقعة كلها. وإنما صورها تصويراً أميناً رائعاً. سجل كل حقائقها ، والتقط بعدساته كل دقائقها. وعرضها عرضاً جديداً نقيًّا صافياً ، وربط بينها وبين وقائع كانت كالسبب الموحد لها فى بناء محكم وعرض أمين. ولم يقف القرآن عند هذا الحد.. بل قام بإضافة الكثير جدًّا من الجديد الذى لم يعرفه الإنجيل. وصحح كثيراً من الأخطاء التى وردت فيه بفعل التحريف والتزوير. إما بالنص وإما بالسكوت. وهذا لا يتأتى من مقتبس ليس له مصدر سوى ما اقتبس منه. وإنما يتأتى ممن له مصدره ووسائله وسلطانه المتفوق ، بحيث يتخطى كل الحواجز ، ويسجل الواقعة من " مسرحها " كما رآها هو ، وعقلها هو ، وسجلها هو. وكان هذا هو القرآن. إن المصدر الوحيد للقرآن هو الوحى الصادق الأمين.. وليس ما سجله الأحبار والكهان ، والفريسيون ، والكتبة فى توراة أو أناجيل. إن مقاصد القرآن وتوجيهاته وكل محتوياته ليس فى التوراة ولا فى الإنجيل منها شىء يذكر. وفاقد الشىء لا يعطيه. هذا هو حكم العقل والعلم ، ومن لم يخضع لموازين الحق من عقل وعلم ونقل فقد ظلم نفسه.[٤]

تعلّم محمد صلى الله عليه وسلم من غيره :

الرد على الشبهة:

وهى من أسوأ المفتريات على محمد صلى الله عليه وسلم الذى قال ربه عز وجل عنه: (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى) (١).

لكن الحقد حين يتمكن من قلوب الحاقدين يدفعهم إلى المنكر من القول ومن الزور ، حتى إنهم ليتجرأون على قولٍ لا يقبله عقل عاقل ، ولا يجرؤ على مثله إلا المفترون.

[٤] شبهات المشككين ٦٩/١

فى هذه المقولة زعموا أنه حين كان ينزل عليه الوحى بالآيات التى أثبت العلم الحديث المعاصر أنها من أبرز آيات الإعجاز العلمى فى القرآن فيما تتصل بمراحل خلق الإنسان من سلالة من طين ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة ثم يكون إنشاؤه خلقًا آخر..

زعموا أن كاتب وحيه قال مادحًا مَنْ هذا خلقه:(تبارك الله أحسن الخالقين) (٢).

ثم أفرطوا فى زعمهم فقالوا إن محمدًا صلى الله عليه وسلم قال له: اكتبها فهكذا نزلت علىّ.. ؟! وهنا لابد من وقفة:

فأولاً: مما هو ثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحى يأخذ العرق يتصبب من جسده ويكون فى غيبة عمن حوله.. فإذا انقضى الوحى أخذ فى ذكر وتلاوة ما نزل عليه من القرآن ، وهذا ما تقرره كل كتب السيرة.

ثانياً: معنى ما سبق أنه صلى الله عليه وسلم لا يأخذ فى الإملاء على كاتب وحيه إلا بعد اكتمال نزول الوحى واكتمال نزول الآيات المتعلقة بمراحل خلق الإنسان فى سورة " المؤمنون ".

ثالثًا: وبهذا يتضح كذب المقولة أن كاتب وحيه صلى الله عليه وسلم هو الذى أملاها عليه وأنه أمر بإثباتها.

رابعًا: أن لفظة " تبارك الله " تكررت فى القرآن الكريم تسع مرات ، تلتقى جميعها فى مواضع يكون الحديث فيها عن قدرة الخالق فيما خلق من مثل قوله تعالى:

(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) (٣).

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا) (٤). (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا) (٥).

(تبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) (٦).

(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) (٧).

فلماذا تعلم محمد صلى الله عليه وسلم من كاتب وحيه آية " المؤمنون " دون غيرها مما جاء فى بقية السور ؟!!°

° المصدر نفسه ١٠٧/١

حول تناقض النقل - القرآن - مع العقل :

هناك مَنْ يقيمون التناقض بين " العقل " و " النقل " ، ويدعون أن الثقافة الإسلامية نقلية لا عقلية ، ويعتقدون أن جميع علماء الأمة بدون استثناء غير مؤهلين ، لأنهم اعتمدوا على النقل وليس التفكير.. وأنه يجب التفكير فى كل أمور الدين ، الأصل قبل الفرع.. وإلغاء كل الأساسيات الموجودة التى تعتبرها الأمة من المسلمات ، والبحث من جديد عن الحقيقة ، معتمدين على العقل فقط.. (انتهى).

الرد على الشبهة:

إن القول بالاعتماد على العقل فقط - أى دون النقل ، الذى هو الوحى الإلهى ، فى بلاغه القرآنى وبيانه النبوى -.. واستخدام العقل وحده أداة لإعادة النظر فى كل ما تعتبره الأمة من المسلمات.. هو قول يحتاج إلى ضبط.. وإلى تصويب.. ويمكن أن يتم ذلك من خلال إشارات إلى عدد من الحقائق:

أولاها: أن مقام العقل فى الإسلام هو مكان عال وفريد ، ولا نظير له فى الشرائع السابقة على الشريعة الإسلامية الخاتمة.. فالعقل فى الإسلام هو مناط التكليف بكل فرائض وأحكام الإسلام.. أى شرط التدين بدين الإسلام.

وثانيتها: أن النقل الإسلامى - وخاصة معجزته القرآنية - هو معجزة عقلية ، قد ارتضت العقل حكمًا فى فهمها وفى التصديق بها ، وفى التمييز بين المحكم والمتشابه فى آياتها ، وأيضًا فى تفسير هذه الآيات.. فليس للقرآن كهنوت يحتكر تفسيره ، وإنما هو ثمرة لنظر عقول العلماء المفسرين.. وعلى حين كانت معجزات الرسالات السابقة معجزات مادية ، تدهش العقول ، فتشلها عن التفكير والتعقل ، جاءت معجزة الإسلام - القرآن الكريم - معجزة عقلية ، تستنفر العقل كى يتعقل ويتفكر ويتدبر ، وتحتكم إليه باعتباره القاضى فى تفسير آياتها.. فكان النقل الإسلامى سبيلاً لتنمية العقلانية الإسلامية.. وكان هذا التطور فى طبيعة المعجزة متناسبًا ومتسقًا مع مرحلة النضج التى بلغتها الإنسانية ، ومع ختم السماء سلسلة الرسالات والوحى إلى الأنبياء والرسل وأمم الرسالات..

وثالثتها: أن العقل - فى الإسلام - هو سبيل الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفاته.. لأن الإيمان بالله سابق على التصديق بالرسول وبالكتاب الذى جاء به الرسول ، لأنه شرط لهما ، ومقدم عليهما ، فالتصديق بالكتاب - النقل - متوقف على صدق الرسول الذى أتى به ، والتصديق بالرسول متوقف على وجود الإله الذى أرسل هذا الرسول وأوحى إليه.. والعقل هو سبيل الإيمان بوجود

الله - سبحانه وتعالى - وذلك عن طريق تأمل وتدبر بديع نظام وانتظام المصنوعات الشاهدة على وجود الصانع المبدع لنظام وانتظام هذه المصنوعات.. فالعقل - فى الإسلام - هو أداة الإيمان بجوهر الدين - الألوهية - وبعبارة الإمام محمد عبده: ".. فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحُجة ، وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته.. " (١).

وذلك على حين كان العقل غريبًا ومستبعدًا من سبل الإيمان فى حقب الرسالات السابقة على الإسلام.. حقب المعجزات المدهشة للعقول ، عندما كانت الإنسانية فى مراحل الطفولة " خرافًا ضالة " ، تؤمن بما يُلقى إلى قلبها ، دون إعمال عقل ، لأن الإيمان لا يحتاج إلى إعمال عقل.. وفق عبارة القديس والفيلسوف النصرانى " أنسيلم " [١٠٣٣-١١٠٩م].

ورابعتها: أن المقابلة بين " العقل " و " النقل " هى أثر من آثار الثنائيات المتناقضة التى تميزت بها المسيرة الفكرية للحضارة الغربية ، تلك التى عرفت لاهُوتًا كنسيًا - نقلاً - لا عقلانيًا ، فجاءت عقلانيتها ، فى عصر النهضة والتنوير الوضعى العلمانى ، ثورة على النقل اللاعقلانى ونقضًا له.. أما فى الإسلام ، والمسيرة الفكرية لحضارته وأمته - وخاصة فى عصر الازدهار والإبداع - فإن النقل لم يكن أبدًا مقابلاً للعقل ، لأن المقابل للعقل هو الجنون ، وليس النقل.. ولأن النقل الإسلامى - القرآن الكريم - هو مصدر العقلانية المؤمنة ، والباعث عليها ، والداعى لاستخدام العقل والتفكر والتدبر فى آيات الله المنظورة والمسطورة جميعًا.. وآيات القرآن التى تحض على العقل والتعقل تبلغ تسعًا وأربعين آية.. والآيات التى تتحدث عن " اللُّب " - بمعنى عقل وجوهر الإنسان - هى ست عشرة آية. كما يتحدث القرآن عن " النُّهى " - بمعنى العقل - فى آيتين.. وعن الفكر والتفكر فى ثمانية عشر موضعًا.. وعن الفقه والتفقه - بمعنى العقل والتعقل - فى عشرين موضعًا.. وعن " التدبر " فى أربع آيات.. وعن " الاعتبار " فى سبع آيات.. وعن " الحكمة " فى تسع عشرة آية.. وعن " القلب " كأداة للفقه والعقل - فى مائة واثنين وثلاثين موضعًا.. ناهيك عن آيات العلم والتعلم والعلماء التى تبلغ فى القرآن أكثر من ثمانمائة آية.. فالنقل الإسلامى - أى الشرع الإلهى - هو الداعى للتعقل والتدبر والتفقه والتعلّم.. والعقل الإنسانى هو أداة فقه الشرع ، وشرط ومناط التدين بهذا الشرع الإلهى.. ولذلك لا أثر للشرع بدون العقل ، كما أنه لا غنى للعقل عن الشرع ، وخاصة فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أمور الغيب وأحكام الدين. ذلك أن العقل ، مهما بلغ من العظمة والتألق فى الحكمة والإبداع ، هو ملكة من ملكات الإنسان ، وكل ملكات الإنسان - بالخبرة التاريخية والمعاصرة - هى نسبة الإدراك والقدرات ، تجهل اليوم ما تعلمه غدًا ، وما يقصر عنه عقل الواحد يبلغه عقل الآخر.. وإذا كانت ميادين عالم الشهادة - النفس والكون..

أى الدنيا.. مفتوحة على مصاريعها أمام العقل وأمام التجربة - بالنسبة للإنسان - فإن هناك ميادين - وخاصة فى معارف عالم الغيب - سبيل معرفتها النقل - أى الوحى - والوجدان - القلب والإلهام - فالهدايات التى يهتدى بها الإنسان هى " العقل " و " النقل " و " التجربة " و " الوجدان ".. وليست العقل وحده دون سواه.. وبتنوع الهدايات وسبل المعرفة الإنسانية ، مع تنوع مصادر المعرفة الإنسانية - الوحى وآيات الله المسطورة ، مع الكون وآيات الله المنظورة - تتكامل وتتوازن المعرفة الإنسانية - وهذه هى نظرية المعرفة الإسلامية - بينما يختل توازن هذه المعرفة إذا هى وقفت - فى المصادر - عند الكون وعالم الشهادة وحده - وفى الوسائل وإدراك المعرفة عند العقل وحده ، أو العقل والتجربة وحدهما ، دون النقل والوجدان.. ولقد عبر عن هذا التكامل والتوازن فى - نظرية المعرفة الإسلامية الإمام محمد عبده عندما تحدث - فى تفسيره لآية (اهدنا الصراط المستقيم)- من سورة الفاتحة - عن " الهدايات الأربع " - العقل ، والنقل ، والتجربة ، والوجدان كما عبر عن التلازم الضرورى بين العقل والنقل ، لتكامل المعرفة الإسلامية عندما قال: ".. فالعقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله ، وعلمه وقدرته ، والتصديق بالرسالة.. أما النقل ، فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب ، كأحوال الآخرة والعبادات.. والقرآن - وهو المعجز الخارق - دعا الإسلامُ الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عُرضت على العقل ، وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها.. وإذا قدّرنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى.. أما الوصول إلى كنه حقيقته فمما لا تبلغه قوته.. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجًا إلى مُعين يستعين به فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة.. " (٢).

فالإسلام لا يعرف - على الإطلاق - هذه الثنائية المتناقضة بين العقل والنقل.. وصريح المعقول لا يمكن أن يتعارض مع صحيح المنقول.. ولقد عبر الإمام محمد عبده عن ما قد يتوهمه البعض تعارضًا عندما صاغ حقيقة هذه القضية فقال: " لقد تقرر بين المسلمين أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل.. " (٣).. ففارق بين ما يعلو على إدراك العقل ، من بعض أمور الدين ، وبين ما يستحيل فى العقل الذى برئ ويبرأ منه الدين.

ومن بين علماء الإسلام الذين عبروا - بصدق وعبقرية - عن تكامل العقل والنقل - الحكمة والشريعة - حُجة الإسلام - أبو حامد الغزالى عندما قال: " إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ، ما أُتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر. وأن من تغلغل فى تصرف العقل حتى

صادموا به قواطع الشرع ، ما أُتوا به إلا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط ، وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط.. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء ، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء ، فأخْلِق أن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء ، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور.. " (٤).

وهذه العلاقة بين العقل والنقل - علاقة التكامل والتآخى - هى التى أكد عليها أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠-٦٥٤هجرية/١١٢٦-١١٩٨م] عندما قال: ".. فإنا - معشر المسلمين - نعلم على القطع ، أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له.. فالحكمة هى صاحبة الشريعة ، والأخت الرضيعة.. وهما المصطحبتان بالطبع ، المتحابتان بالجوهر والغريزة.. " (٥).

فالباب مفتوح على مصراعيه أمام العقل فى سائر ميادين عالم الشهادة. وهو سبيل الفقه والفهم والتكليف فى الشرع والدين.. لكن لابد من مؤازرة الشرع والنقل للعقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أخبار عالم الغيب والحكم والعلل من وراء بعض أحكام العبادات فى الدين.. وما قد يبدو من تعارض - عند البعض - أحيانًا بين العقل والنقل ، فهو تعارض بين العقل وبين " ظاهر " النقل وليس حقيقة معنى النقل أو مرجعه إلى تخلف " صحة " النقل.. أو تخلف " صراحة " العقل.. أو وجود ما يعلو على الفهم ، لا ما يتعارض مع العقل.. فالعقل مع الشرع - كما قال حُجة الإسلام الغزالى - " نور على نور ".. وما الحديث عن التعارض بينهما إلا أثر من آثار الغلو فى أحدهما ، تفريطًا أو إفراطًا. وإذا كانت البداهة والخبرة البشرية - وحتى الحكمة الفلسفية - تقول: إن من مبادئ الدين والشرائع ما لا يستقل العقل بإدراك كنهه وحقيقة جوهره ، فكيف يجوز لعاقل أن يدعو إلى تحكيم العقل وحده فى كل أساسيات الدين ؟! لقد قال الفيلسوف الفقيه أبو الوليد ابن رشد وهو الذى احترم عقلانيته المتألقة الأوروبيون والمسلمون جميعًا. قال عن رأى الفلاسفة القدماء فى مبادئ الشرائع التى لا يستقل العقل بإدراكها: " إن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع مثل: هل الله تعالى موجود ؟ وهل السعادة موجودة ؟ وهل الفضائل موجودة ؟. وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد ، ولذلك وجب قتل الزنادقة.. فيجب على كل إنسان أن يسلم بمبادئ الشرائع ، لأن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، وكيفية وجودها هو أمر معجز عن إدراك العقول الإنسانية ، فلابد أن يعترف بها مع جهل أسبابها.. " (٦).

فليس هناك عاقل يحكِّم العقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه من مبادئ الشرائع والمعجزات ، وكنه وجوهر وحقائق المغيبات. وليس هناك عاقل يغفل أو يتغافل عن مكانة ودور العقل فى دين الإسلام. وإدراك وظيفة العقل.. وميدان عمله.. وحدود قدراته ، هو لب الاحترام للعقل ، وليس فيه انتقاص من سلطانه ، الذى تألق فى دين الإسلام وفكر المسلمين.[٦]

القرآن يتناقض مع العلم

إنه جاء فى القرآن أن الله خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن. فكيف يقول عن أرضنا وهى واحدة من ملايين الكواكب ـ إنه يوجد سبعة مثلها ؟

وفى القرآن: (أن السماء سقفاً محفوظاً) ، وأن الله يمسكها لئلا تقع. فكيف يقول عن الفضاء غير المتناهى: إنه سقف قابل للسقوط ؟

وفى القرآن أن الله زين السماء الدنيا بمصابيح. فكيف يقول عن ملايين الكواكب التى تسبح فى هذا الفضاء غير المتناهى إنها مصابيح ؟

الرد على الشبهة:

هذا السؤال مكون من ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: هو أنه ليس فى العالم سبعة أرضين. فكيف يقول عن الأرض: إنها سبعة كما أن السموات سبعة ؟ وقول المؤلف إن الأرض سبعة ؛ أخذه من بعض مفسرى القرآن الكريم. وهو يعلم أن المفسرين مجتهدون ، ويصيبون ويخطئون. والرد عليه فى هذا الجزء من السؤال هو: أن نص الآية هو: (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً) (١). إنه أتى بـ (مِنْ) التى تفيد التبعيض ؛ لينفى العدد فى الأرض. وليثبت المثلية فى قدرته. فيكون المعنى: أنا خلقت سبع سموات بقدرتى ، وخلقت من الأرض مثل ما خلقت أنا السماء بالقدرة. ولهذا المعنى علّل بقوله: (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير). وبيان التبعيض فى الأرض: هو أن السماء محكمة ، وأن الأرض غير محكمة. وهى غير محكمة لحدوث الزلازل فيها ، وللنقص من أطرافها. وقد عبّر عن التبعيض

[٦] شبهات المشككين ١٦/١

فى موضع آخر فقال: (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) (٢). والنقص من الأطراف يدل على أن الباقى من الأرض ممسوك بقدرة الله ، كما يمسك السماء كلها.

والجزء الثانى: هو أن السماء سقف قابل للسقوط. والرد عليه فى هذا الجزء من السؤال هو: أن كل لغة فيها الحقيقة وفيها المجاز. والتعبير على المجاز. فإن السماء شبه سقف البيت ، والمانع للسقف من السقوط على الحقيقة هو الأعمدة ، وعلى المجاز هو الله ؛ لأن كل شىء بقدرته. ولذلك نظير فى التوراة وفى الإنجيل: " بالكسل يهبط السقف ". وفى ترجمة أخرى: " من جراء الكسل ينهار السقف. وبتراخى اليدين يسقط البيت " [جامعة ١٠: ١٨] يريد أن يقول: إن الكسل يؤدى إلى الفقر ، والفقر يؤدى إلى خراب البيوت. وعبر عن الخراب بانهيار السقف. والسقف لا ينهار بالكسل ، وإنما بهدّ الأعمدة التى تحمله. وفى سفر الرؤية: " فسقط من السماء كوكب " [رؤ ٨: ١٠] كيف يسقط كوكب من السماء بغير إرادة الله ؟ وفى سفر الرؤية: " ونجوم السماء سقطت " (رؤ ٦: ١٣] ، ويقول عيسى عليه السلام: إن العصفور لا يقع إلى الأرض إلا بإرادة الله: " أما يباع عصفوران بفَلْس واحد. ومع ذلك لا يقع واحد منهما إلى الأرض خفية عن أبيكم " [متى ١٠: ٢٩]. وفى الرسالة إلى العبرانيين: " حقاً ما أرهب الوقوع فى يدى الله الحى ؟ " [عب ١٠: ٣١].

والجزء الثالث: وهو أنه كيف يقول عن الكواكب إنها مصابيح ؟ والمؤلف دل بقوله هذا على إنكار الواقع والمشاهد فى الحياة الدنيا ، ودل أيضاً بقوله هذا على جهله بالتوراة وبالإنجيل. ففى سفر الرؤية: " كوكب عظيم متقد كمصباح "[رؤ ٨: ١٠]، "وأمام العرش سبعة مصابيح "[رؤ ٤: ٥]، وجاء المصباح على المجاز فى قول صاحب الأمثال: " الوصية مصباح والشريعة نور " [أم ٦: ٢٣].

كيف يكون العلم كفرًا ؟

يعترض على قوله: (إنما النسئ زيادة فى الكفر) (١) أن النسئ الذى فى السنة القبطية من الحساب الفلكى.. فكيف يكون العلم كفراً ؟

الرد على الشبهة:

أن النسئ فى الآية هو ما كان يفعله المشركون من تبديل الأشهر الحرم مكان الأشهر الحلال ليستحلوا بذلك القتال فيها ، ولا علاقة له بالأيام التى تضبط السنة القبطية للزراعة ، ومن هنا

يتبين مدى محاولة التلبيس والتدليس الذى يضحك منها العارفون مع حزنهم أن يصل الترصد ضد كلام الله سبحانه والعمل على أن لا يصل إلى الخلق باعتباره ـ الكلمة الأخيرة للعالمين ـ إلى هذا الحد الرخيص من التلاعب بالألفاظ والمصطلحات.[٧]

الشبهة الأولى

يعطي القرآن معلومات مختلفة عن خلق الإنسان . . من ماء مهين (٧٧ : ٢٠)(١) من ماء (٢١ : ٣٠) . . من نطفة (٣٦ : ٧٧) . . من طين (٣٢ : ٧) . . من علق (٩٦ : ٢) . . من حمأ مسنون (١٥ : ٢٧) . . و لم يك شيئاً (١٩ : ٦٧) . فكيف يكون كل ذلك صحيحاً في نفس الوقت؟
الجواب:
ليس هناك أدنى تناقض - بل و لا حتى شبهة تناقض - بين ما جاء في القرآن الكريم من معلومات عن خلق الإنسان . و حتى يتضح ذلك ، يلزم أن يكون هناك منهج علمي في رؤية هذه المعلومات ، التي جاءت في عديد من آيات القرآن الكريم . . و هذا المنهج العلمي يستلزم جمع هذه الآيات . . و النظر إليها في تكاملها . . مع التمييز بين مرحلة خلق الله للإنسان الأول - آدم عليه السلام - و مرحلة الخلق لسلالة آدم ، التي توالت و تكاثرت بعد خلق حواء ، و اقترانها بآدم ، و حدوث التناسل عن طريق هذا الاقتران و الزواج . لقد خلق الله ، سبحانه و تعالى ، الإنسان الأول (آدم) فأوجده بعد أن لم يكن موجوداً . . أي أنه أصبح "شيئاً" بعد ان لم يكن "شيئاً" موجوداً . . و إنما كان وجوده فقط في العلم الإلهي . . و هذا و معنىالآية الكريمة : {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} (مريم : ٦٧) . أما مراحل خلق الله ، سبحانه و تعالى ، لآدم . . فلقد بدأت ب(التراب) الذي أضيف إليه (الماء) فصار (طيناً) ثم تحول هذا الطين إلى (حمأ) أي أسود منتن ، لأنه تغير - و المتغير هو (المسنون) - فلما يبس هذا الطين - من غير أن تمسه النار - سمى (صلصالاً) - لأن الصلصال هو الطين اليابس (من غير ان تمسه نار) و سمى صلصالاً لأنه يصل ، أي يصوت ، من يبسه - أي له صوت و رنين . و بعد مراحل الخلق هذه - التراب . فالماء . فالطين . . فالحمأ المسنون . . فالصلصال . . نفخ الله ، سبحانه و تعالى ، في مادة الخلق هذه من روحه ، فغدا هذا المخلوق "إنساناً" هو آدم ، عليه السلام . و عن هذه المراحل تعبر الآيات القرآنية فتصور تكامل المراحل - و ليس التعارض المتوهم و الموهوم - فتقول هذه الآيات الكريمة : {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} (آل عمران : ٥٩) - فبالتراب كانت البداية . {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} (السجدة : ٧) و ذلك عندما أضيف الماء إلى التراب {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ} (الصافات : ١١) - و

[٧] شبهات المشككين ١/١١١-١١٢

ذلك عندما زالت قوة الماء عن الطين فأصبح "لازباً" ، أي جامداً . و في مرحلة تغير الطين ، و اسوداد لونه و نتن رائحته سمي (حمأ مسنوناً) ، لأن الحمأ هو الطين الأسود المنتن . و المسنون هو المتغير بينما الذي (لم يتسنه) هو الذي لم يتغير. و عن هذه المرحلة عبرت الآيات : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)} (الحجر : ٢٦-٣٥)(٢) . تلك هي مراحل خلق الإنسان الأول ، توالت فيها و تتابعت و تكاملت المصطلحات : التراب و الماء و الطين و الحمأ المسنون و الصلصال . دونما أي شبهة للتعارض أو التناقض . و كذلك الحال و المنهاج مع المصطلحات التي وردت بالآيات القرآنية التي تحدثت عن خلق سلالة آدم عليه السلام . فكما تدرج خلق الإنسان الأول - آدم - من التراب إلى الطين إلى الحمأ المسنون إلى الصلصال . حتى نفخ الله فيه من روحه كذلك تدرج خلق السلالة و الذرية . بدءاً من (النطفة) - التي هي الماء الصافي - و يعبر بها عن ماء الرجل - (المني) - إلى (العلقة) - التي هي الدم الجامد ، الذي يكون منه الولد ، لأنه يعلق و يتعلق بجدار الرحم إلى (المضغة) - و هي قطعة اللحم التي لم تنضح ، و المماثلة لما يمضغ بالفم - . . إلى (العظام) . . إلى (اللحم) الذي يكسو العظام إلى (الخلق الاخر) الذي اصبح - بقدرة الله - في أحسن تقويم(٣) . و من الآيات التي تحدثت عن توالي و تكامل هذه المراحل في خلق و تكوين نسل الإنسان الأول و سلالته ، قول الله ، سبحانه و تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} (الحج : ٥) . و قوله ، سبحانه : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون : ١٢-١٤) . و إذا كانت (النطفة) هي ماء الرجل . . فإنها عندما تختلط بماء المرأة ، توصف بأنها (أمشاج) - أي مختلطة - كما جاء في قوله تعالى : {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} (الإنسان : ٢) . كما توصف هذه (النطفة) بأنها (ماء مهين) لقلته و ضعفه . . و إلى ذلك تشير الآيات الكريمة : {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} (السجدة : ٧-٨) .

{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} (المرسلات : ٢٠-٢٣) . و كذلك ، وصفت (النطفة) - أي ماء الرجل - بأنه (دافق) لتدفقه و اندفاعه . . كما جاء في الآية الكريمة : {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)} (الطارق : ٥-٧) . هكذا عبر القرآن الكريم عن مراحل الخلق . . خلق الإنسان الأول . . و خلق سلالات و ذريا هذا الإنسان . و هكذا قامت مراحل الخلق ، و مصطلحات هذه المراحل ، شواهد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم . عندما جاء العلم الحديث ليصدق على هذه المراحل و مصطلحاتها ، حتى لقد انبهر بذلك علماء عظام فاهتدوا إلى الإسلام. فكيف يجوز - بعد ذلك و معه - أن يتحدث إنسان عن وجود تناقضات بين هذه المصطلحات . . لقد صدق الله العظيم : {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (النساء : ٨٢) .

الشبهة الثانية

يوضح القرآن أن الله لا يغفر أن يشرك به (٤ : ٤٨) . و مع ذلك فقد غفر الله لإبراهيم ، عليه السلام ، بل جعله نبياً رغم أنه عبد النجوم و الشمس و القمر (٦ : ٨٦-٧٨) . فما الإجابة؟
الجواب:
الشرك محبط للعمل : {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} (الزمر : ٦٤-٦٦) ، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} (النساء : ٤٨) .

و الأنبياء و الرسل هم صفوة الله من خلقه ، يصطفيهم و يستخلصهم ، و يصنعهم على عينه ، و ينزهم - حتى قبل البعثة لهم و الوحي إليهم - عن الأمور التي تخل بجدارتهم للنبوة و الرسالة و من ذلك الشرك ، الذي لو حدث منهم و اقترفوه لكان مبرراً لغيرهم أن يقترفه و يقع فيه و لذلك ، لم يرد في القرآن الكريم ما يقطع بشرك أحد الأنبياء و الرسل قبل بعثته بمن في ذلك أبو الأنبياء و خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام . أما الآيات التي يشير إليها السؤال . . و هي قول الله ، سبحانه و تعالى : {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ

أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (الأنعام : ٧٤-٨٣) .

أما هذه الآيات ، فليس فيها دليل على أن إبراهيم ، عليه السلام ، قد مر بمرحلة شرك ، و حاشا له أن يقع في ذلك ، و إنما هي تحكي كيف آتى الله إببراهيم الحجة على قومه . . حجة التوحيد ، و دحض الشرك . . فهي حجاج و حوار يسلم فيه إبراهيم جدلاً - كشأن الحوار - بما يشركون ؛ لينقض هذا الشرك ، و يقيم الحجة على تهاوي ما به يحتجون ، و على صدق التوحيد المركوز في فطرته . . ليخلص من هذا الحوار و الحجاج و الاحتجاج إلى أن الخيار الوحيد المتبقي - بعد هذه الخيارات التي سقطت - هو التوحيد . . فهو حوار التدرج من توحيد الفطرة إلى التوحيد القائم على المنطق و البرهان و الاستدلال ، الذي فند دعاوى و حجج الخصوم الاستدلال اليقيني - {و ليكون من الموقنين} - و ليس فيه انتقال من الشرك إلى التوحيد تلك هي الحقيقة التي رجحها المفسرون : فالقرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١ه ١٢٧٣م) يقول في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) - مورداً الآراء المختلفة حول هذا الموضوع : "قوله تعالى: "قال هذا ربي " اختلف في معناه على أقوال؛ فقيل: كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة؛ وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان وقال قوم: هذا لا يصح؛ وقالوا: غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء. قالوا: وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين، ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عرف الرب أول النظر. قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قال؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام " "إبراهيم: ٣٥ " وقال جل وعز: "إذ جاء ربه بقلب سليم " "الصافات: ٨٤ " أي لم يشرك به قط . لقد قال "هذا ربي " على قول قومه ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر؛ ونظير هذا قوله تعالى: "أين شركائي " "النحل: ٢٧ " وهو جل وعلا واحد لا شريك له. والمعنى: ابن شركائي على قولكم. وقيل: إنما قال " هذا ربي " لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم؛ فلما أفل النجم قرر الحجة وقال: ما تغير لا يجوز أن يكون ربا. وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها. وقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في هذا ما صح عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل: " نور

على نور " [النور: ٣٥] قال: كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدل عليه بقلبه، فإذا عرفه أزداد نورا على نور؛ وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائله، فعلم أن له ربا وخالقا. فلما عرفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال: " أتحاجوني في الله وقد هدان " [الأنعام: ٨٠]. وقيل: هو على معنى الاستفهام والتوبيخ، منكرا لفعلهم. والمعنى: أهذا ربي، أو مثل هذا يكون ربا؟ فحذف الهمزة. وفي التنزيل " أفإن مت فهم الخالدون " [الأنبياء: ٣٤] أي أفهم الخالدون؟ ..."(١) و مع هذا الرأي ايضاً الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧-٥٣٨هـ/١٠٧٥-١١٤٤م) صاحب تفسير (الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل) . الذي يقول في تفسير هذه الايات : "وكان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئاً منها لا يصحّ أن يكون إل?هاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، مدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . { هَـذَا رَبّى } قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة . { لا أُحِبُّ لأفِلِينَ } لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام . { لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبّى } تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضال، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه . { إِنّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَـاواتِ وَالأرْضَ } أي للذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها."(٢) و على هذا الرأي أيضاً - من المحدثين - الشيخ عبد الوهاب النجار (١٢٧٨-١٣٦٠هـ/١٨٦٢-١٩٤١م) - صاحب (قصص الأنبياء) - الذي يقول : "لقد أتى إبراهيم في الاحتجاج لدينه و تزييف دين قومه بطريقة التدرج في الإلزام ، أو التدرج في تكوين العقيدة . ."(٣) . ذلك هو موقف إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، من الشرك . . لقد عصمه الله منه . . و إنما هي طريقة في الجدال يتدرج بها مع قومه ، منطلقاً من منطلقاتهم ؛ ليصل بهم إلى هدم هذه المنطلقات ، و إلى إقامة الدليل العقلي على عقيدة التوحيد الفطرية المركوزة في القلوب .

الشبهة الثالثة

يؤكد القرآن أنه لا يمكن للملائكة أن تعصى الله (٦٦ : ٦) و مع ذلك فقد عصى إبليس الذي كان من الملائكة ، كما في الآية (٢ : ٣٤) فأيهما صحيح؟

الجواب:

الملائكة مخلوقات مجبولة على طاعة الله و عبادته و التسبيح له و به . . فم لا يعصون الله ، سبحانه و تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (التحريم : ٦) . و مع تقرير هذه الآية أن هؤلاء الملائكة القائمين على النار {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} . . يقرر القرآن الكريم أن إبليس - و هو من الملائكة - في قمة العصيان و العصاة : {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (البقرة : ٣٤) .و هناك إمكانية للجمع بين معاني الآيتين ، و ذلك بأن نقول : إن عموم الملائكة لا يعصون الله ، سبحانه و تعالى ، فهم مفطورون و مجبولون على الطاعة . . لكن هذا لا ينفي وجود صنف هم الجن - و منهم إبليس ، شملهم القرآن تحت اسم الملائكة - كما وصف الملائكة أيضاً بأنهم جنة - لخفائهم و استتارهم - . . و هذا الصنف من الجن ، منهم الطائعون و منهم العصاة . و في تفسير الإمام محمد عبده (١٢٦٥-١٣٢٣ه/١٨٤٩-١٩٠٥م) لآية سورة البقرة يقول : "أي سجدوا إلا إبليس ، و هو فرد من أفراد الملائكة ، كما يفهم من الآية و أمثالها في القصة ، إلا أن آية الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجن. و ليس عندنا دليل على أن بين الملائكة و الجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر ، و و إنما هو اختلاف أصناف ، عندما تختلف أوصاف . فالظاهر ان الجن صنف من الملائكة . و قد اطلق القرآن لفظ الجنة على الملائكة ، على رأي جمهور المفسرين في قوله تعالى : {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} (الصافات : ١٥٨) و على الشياطين في آخر سورة الناس"(١) . و نحن نجد هذا الرأي أيضاً عند القرطبي - في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) - فيقول : " وقال سعيد بن جبير: إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور. . والملائكة قد تسمى جنا لاستتارها، وفي التنزيل: {وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً} (الصافات: ١٥٨) ، وقال الشاعر في ذكر سليمان عليه السلام: وسخر من جن الملائك تسعة :: قياما لديه يعملون بلا أجر "(٢) فلا تناقض إذاً بين كون الملائكة لا يعصون الله. و بين عصيان إبليس - و هو من الجن ، الذين أطلق عليهم اسم الملائكة - فهو مثله كمثل الجن هؤلاء منهم الطائعون و منهم العصاة

الشبهة الرابعة

كل المخلوقات في السموات و الأرض طائعة و قانتة لله تعالى (٣٠ : ٢٦) . و مع ذلك نجد حالات كثيرة من عدم الطاعة من جانب البشر (مثلاً : ٦٩ : ١٠) .

الجواب:

كل المخلوقات ، في السموات و الأرض ، طائعة و قانتة لله ، سبحانه و تعالى : { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } (الروم : ٢٦) . فهم قانتون لله ، أي خاضعون و مطيعون لإرادته ، سبحانه و تعالى. و مع ذلك يشهد الواقع ، و تحكي الآيات القرآنية الكثير عن حالات العصيان و عدم الطاعة من جانب البشر . و ذلك من مثل قوله سبحانه : { وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } (الحاقة : ٩-١٠) . ففي هذه الآية وحدها إشارات إلى عصيان فرعون. و عصيان من سبقه من المؤتفكات - أي قرى قوم لوط - الذين أخذهم الله أخذة رابية ، أي زائدة في الشدة على غيرها . بل إن تاريخ الإنسانية هو صراع بين أهل الطاعة و أهل العصيان . حتى أن المأثورالنبوي الشريف قد تحدث عن أن كل بني آدم خطاء ، و خير الخطائين التوابون . فكيف يتسق شيوع العصيان في البشر ، مع الآية القرآنية التي تحدثت عن أن كل من في السموات و الأرض قانتون - أي خاضعون و مطيعون - لله سبحانه و تعالى؟ إن مفتاح الإجابة عن هذا التساؤل ، هو فهم أنواع الإرادة الإلهية و القضاء الإلهي . فالله سبحانه لا يريد العصيان ، و لا يقضي بالشر لكن إرادته و قضاءه نوعان : ١ - إرادة و قضاء تكويني و حتمي للمخلوقات غير المخيرة و ذلك مثل القضاء الذي تتحدث عنه الآية :

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (فصلت : ١٢) . و من مثل : { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (البقرة : ١١٧) .

ففي هذا اللون من الأمر الإلهي و القضاء الرباني تكون المخلوقات غير المختارة مجبولة على القنوت و الطاعة و الخضوع لله سبحانه و تعالى.

٢ - إرادة و قضاء معهما تخيير . و ذلك خاص بالإنسان المخير . المكلف . المسئول و الذي له - بسبب هذا التخيير و الحرية - حساب و جزاء . و إلى مثل هذا تشير الآيات : { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا } (الإسراء : ٢٣-٢٤) . فنحن هنا أمام قضاء إلهي ، شاء الله سبحانه و تعالى أن يترك للإنسان المخير إزاءه حرية الطاعة و العصيان ، ليتميز الخبيث من الطيب ، و ليكون الجزاء وفق العمل و الإرادة و الاختيار . . فالإنسان المخير ، الذي هداه الله النجدين ، له قدرات و استطاعات الطاعة و العصيان . . و لذلك ، كان من جنس الإنسان المؤمن و الكافر ، و المطيع و العاصي ، و من يبتغي وجه الله ، و من يبتغي غير دين الله . . بينما المخلوقات غير المختارة مجبولة على الطاعة و الخضوع { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } (آل عمران : ٨٣) ، { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } (الرعد : ١٥) ، { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (فصلت : ١١) . ففي مخلوقات الله مخلوقات مجبولة على الطاعة و الخضوع . . و في هذه المخلوقات ، منهم من يطيع و منهم من يختار العصيان ، فيبتغي غير دين الله ! .

الشبهة الخامسة

توضح كثير من سور القرآن أن السموات و الأرض قد خلقت في ستة أيام . و هنا مشكلتان ؛ الأولى انه من الثابت علمياً أن خلق السموات و الأرض قد استغرق بلايين السنين . و الثانية : أنه في التعبير القرآني نفسه كانت مدة الخلق ثمانية أيام بدلاً من ستة (٤١ : ٩-١٢) . .فكيف يمكن التوفيق بين هذه الآيات؟

الجواب:

في كثير من السور القرآنية تتحدث آيات كثيرة عن خلق الله ، سبحانه و تعالى ، السموات و الأرض و تقدير ما فيهما في ستة أيام و من هذه الآيات :

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } (الأعراف : ٥٤ - و يونس : ٣) .
{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } (هود : ٧) .
{ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } (الفرقان : ٥٩) .
{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } (السجدة : ٤) .
{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } (ق : ٣٨) .
{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } (الحديد : ٤) .
و ليس هناك تعارض بين تحديد زمن الخلق للسموات و الأرض في ستة ايام ، و بين ما يراه العلم من استغراق ذلك الخلق بلايين السنين ، ذلك أن المدى الزمني "لليوم" عند الله ، سبحانه و تعالى ، ليس هو المدى الزمني القصير "لليوم" في العرف و التقويم الذي تعارف عليه الإنسان في هذه الحياة الدنيا . . و في القرآن آيات شاهدة على ذلك ، منها :

{ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّه -(لم يتغير)- وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا -(أي نرفعها من الأرض لنؤلفها)- ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (البقرة : ٢٥٩) .

فبعض اليوم ، في حساب الإنسان - هنا - بلغ مائة عام . . أي قرابة ٣٧٠٠٠ يوم!و كذلك الحال في قصة أهل الكهف . . فما حسبوه يوماً أو بعض يوم قد بلغ ثلثمائة عام بالتقويم الشمسي و ثلثمائة و تسعة أعوام بالتقيم القمري . . { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } (الكهف : ١٩) . . {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} (الكهف : ٢٥-٢٦) .و كذلك الحال يوم ينفخ في الصور - يوم البعث - يحسب بعض المجرمين أن مكثهم في الدنيا لم يتجاوز عشر ليال . . بينما يحسب آخرون منهم أن مكثهم لم يتعد اليوم الواحد : {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} (طه : ١٠٢-١٠٤) . أما عند الله ، سبحانه و تعالى ، فإن لمصطلح "اليوم" مدى لا يعلم حقيقة طوله و أمده إلا هو : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } (الحج : ٤٧) . و الآية لا تحدده بألف سنة مما نعد نحن في تقويمنا . . و إنما تستخدم أداة التشبيه - الكاف - (كألف) - ليظل المدى غير معلوم لنا في هذه الحياة . . و غير ممكن التحديد

بوحداتنا نحن في القياس الزمني . . فيوم الدين - الجزاء - . . و أيام الله . . و الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات و الأرض . . مداها - بمقاييس أيامنا نحن - لا يعلمها إلا الله ، سبحانه و تعالى . . ثم إن ما اكتشفه العلم من سرعات للصوت . . و سرعات للضوء . . و زمن الضوء - سنة ضوئية - يجعل تفاوت و اختلاف المفاهيم و المقاييس لمصطلح "اليوم" أمراً مقرراً و مألوفاً هذا عن المشكلة الأولى من مشكلتي السؤال .

أما المشكلة الثانية - من مشكلتي السؤال - و الخاصة بحديث بعض الآيات القرآنية عن أن الخلق للسموات و الأرض قد يفهم أنه استغرق ثمانية أيام ، و ليس ستة أيام . . - و هي آيات سورة فصلت : { قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (فصلت : ٩-١٢) .

هذه "المشكلة" لا وجود لها : فليس هناك تناقض و لا تفاوت بين المدة الزمنية التي جاءت في هذه الآيات و بين الآيات الأخرى التي ورد فيها تحديد الأيام الستة . . ففي هذه الآيات - من سورة فصلت - نجد أن الله ، سبحانه و تعالى ،يخبرنا بأنه : { خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } ثم { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا } في تمام { أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} . . أي في يومين آخرين يضافان إلى اليومين اللذين خلق فيهما الأرض ، فيكون المجموع أربعة أيام . . و ليس وارداً أن يكون خلق الرواسي و تقدير الأقوات قد استغرق أربعة أيام . و لعل من توهم الشبهة - التي جاءت في السؤال - قد أتت من هناك . . أي من توهم إضافة أربعة أيام إلى اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض ، فيكون المجموع ستة . . و إذا أضيف إليها اليومان اللذان خلقت فيهما السماء - { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ } - يكون المجموع ثمانية أيام ، و ليس ستة أيام . . لكن إزالة هذه الشبهة متحققة بإزالة هذا الوهم . . فالأرض خلقت في يومين . . و خلق الرواسي و تقدير الأقوات قد استغرق ما تمم اليومين أربعة أيام . . أي استغرق هو الآخر يومين . . ثم استغرق خلق السموات السبع يومين . . فكان المجموع ستة أيام من أيام الله سبحانه و تعالى . . و لقد نبه المفسرون على هذه الحقيقة - المزيلة لهذا الوهم - فقال القرطبي : "(أربعة أيام) يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما؛ أي في تتمة خمسة عشر يوما." (١)

و قال الزمخشري :"« في أيام أربعة سواء » فذلكة لمدة خلق الله الأرض وما فيها كأنه قال : كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان . ... وقال الزجاج : في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام يريد بالتتمة اليومين ." (٣) فهذه الآيات من سورة فصلت تؤكد - هي الأخرى - على أن خلق السموات و الأرض إنما تم في ستة أيام . . و من ثم فلا تناقض بين آيات القرآن و لا تفاوت في مدة الخلق الإلهي للسموات و الأرض . . و حاشا أن يكون شئ من ذلك في الذكر الحكيم .

الشبهة السادسة

يعطى القرآن أسماء لبعض الشخصيات التاريخية مخالفة لأسمائهم حسب الكتاب المقدس الذى سبق القرآن بعدة قرون . فمثلاً والد إبراهم عليه السلام كان اسمه Teral أو (تارح) ، ومع ذلك يسميه القرآن (آزر) . واسم الذى كان يوسف عليه السلام فى بيته كان Potiphar ، أما الاسم المعطى له فى القرآن فهو (عزيز) [١٢ : ٣٠] .

الجواب:

أولاً : لا يصح أن نجعل من (الكتاب المقدس) حجة على القرآن ومرجعية له .. لأن الثابت ـ حتى فى الدراسات التى قام بها كثير من علماء اليهود والنصارى ـ أن هذا الكتاب المقدس قد أعيدت كتابته ، وأصابه التحريف . كما أن ترجماته قد أدخلت عليه تغييرات وتصحيفات ، وخاصة فى أسماء الأماكن والأشخاص.

ثانياً : لأن القرآن قد تمتع بمستوى من الحفظ والتوثيق والتواتر فى النقل جعله الوحى الوحيد الصحيح على ظهر هذا الكوكب الذى نعيش عليه . فهو الحاكم والمرجع لكل ما عداه من النصوص الدينية الأخرى . وفى هذا الإطار ومن هذا المنطلق نناقش الشبهات التى يثيرها هذا السؤال فنقول : بالنسبة لاسم والد الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ لا تختلف معظم المصادر الإسلامية ـ سواء منها تفاسير القرآن ، أو قصص الأنبياء ـ على أن (آزر) ليس اسم والد إبراهيم وعلى أن اسمه (تارح) ومن العلماء من يرى أن (آزر) اسم صنم ، وأن الآية خطاب استنكارى لعبادة والد إبراهيم لهذا الصنم ، تقدم المفعول فى هذا الخطاب والمعنى أتتخذ آزر إلهاً ومعبوداً ؟ ومن العلماء من يرى أن (آزر) لقب أطلق على (تارح) بعد أن عمل فى حاشية الملك الذى كان حاكماً فى ذلك التاريخ . ونحن نقرأ ـ حول هذه القضية ـ فى تفسير القرطبى :

" قوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) تكلم العلماء فى هذا ، فقال أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن الجوينى الشافعى الأشعرى فى النكت من التفسير له : وليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم تارح . والذى فى القرآن يدل على أن اسمه آزر وقيل : آزر اسم صنم . كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلهاً ، أتتخذ أصناماً آلهة قلت ـ أى القرطبى ـ : ما ادعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق . فقد قال محمد بن إسحاق والكلبى والضحاك : إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو تارح ، مثل إسرائيل ويعقوب . قلت : فيكون له اسمان . وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارح اسم . وحكاه الثعلبى عن ابن إسحاق القشيرى . ويجوز أن يكون العكس وقال الجوهرى : آزر اسم أعجمى ، وهو مشتق من آزر فلان فلاناً إذا عاونه ، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام .. وقال مجاهد ويمان : آزر اسم صنم ، أى أتتخذ آزر إلهاً ، أتتخذ أصناماً وقال الثعلبى فى كتاب العرائس : إن اسم أبى إبراهيم الذى سماه به أبوه تارح ، فلما صار مع النمروذ قيماً على خزانة آلهته سماه آزر . وقال مجاهد : إن آزر ليس باسم أبيه ، وإنما هو اسم صنم ، وهو إبراهيم بن تارح بن ناخور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام " . [القرطبى ج ٧ ص ٢٢ ، ٢٣] ونفس التفسيرات الموضحة لهذه الشبهة نجدها فى (قصص الأنبياء) : " قال السيد المرتضى الزبيدى ، فى ص ١٢ ج ٣ (تاج العروس) : وروى عن مجاهد فى قوله تعلى : (آزر أتتخذ أصناماً) قال : لم يكن بأبيه ، ولكن اسم آزر اسم صنم ، فموضعه نصب على إضمار الفعل والتلاوة كأنه قال : وإذ قال إبراهيم أتتخذ آزر إلهاً ، أى أتتخذ أصناماً آلهة .وقال الصغانى : التقدير أتتخذ آزر إلهاً . وقد نقل شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى باشا عبارة (تاج العروس) السابقة فى أول كتابه (تكملة كتاب الأصنام لابن الكلبى) . وهذا القول الذى قاله مجاهد أولى الأقوال عندى بالقبول . وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر باسمه العَلَمى فى القرآن الكريم . ومما يستأنس له ـ بأن (آزر) اسم إله ـ أننا نجد فى الآلهة القديمة عند المصريين الإله (أزوريس) ومعناه : الإله القوى المعين . وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضاً فى أسماء الآلهة .. " [قصص الأنبياء ص ٧٢]

فليست هناك مشكلة إذن حول هذا الموضوع . أما الشبهة الثانية فى هذا السؤال والخاصة باسم الذى اشترى وآوى يوسف عليه السلام فى بيته ، والذى أطلق عليه القرآن الكريم اسم (عزيز) بينما سماه الكتاب المقدس Potiphar فإنها لا تمثل ـ هى الأخرى ـ مشكلة من المشكلات .. ذلك أن منصب هذا الذى آوى يوسف كان (رئاسة الشرطة) واسمه (فوطيفار) .. ولقبه (العزيز) .. فلا تناقض بين أسماء التعريف به هذه .. ولقد تناولت ذلك المصادر الإسلامية .. فى (قصص الأنبياء) : " وكان سيده رئيس شرطة المدينة ، واسمه (فوطيفار) ، ويعبر عن منصبه

فى العبرية بـ (سرهاطباحيم) ، أى رئيس الشرطة .. " [ص ١٢٢] . وفى تفسير القرطبى : " قال الضحاك : هذا الذى اشتراه ملك مصر ، ولقبه العزيز واسمه قطفير . وقال ابن إسحق : إطفير اشتراه لامرأته وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر وكان هذا العزيز الذى اشترى يوسف على خزائن الملك " [القرطبى ج ٩ ص ١٥٨] .
أما الخلافات والاختلافات الطفيفة فى نطق الاسم فهى واردة ، بسبب النقل من لغة إلى لغة ومن لهجة إلى لهجة وبسبب النسخ للمخطوطات والتصحيف والتحريف فلا مشكلة إذن حول هذه الأسماء .

الشبهة السابعة

يسمى القرآن والدة المسيح ـ عليه السلام ـ باسم (أخت هارون) [١٩ : ٢٨] ، ولعل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلط بين مريم أم المسيح ومريم أخرى كانت أختاً لهارون ، الذى كان أخاً لموسى ـ عليه السلام ـ ومعاصراً له ، ولا يوجد مثل هذا التناقض فى الكتاب المقدس.
الجواب:
يتحدث القرآن الكريم عن مريم أم المسيح ـ عليهما السلام ـ باسم (أخت هارون) ، وذلك فى سورة مريم ، فيقول مخاطباً إياها فى الآية ٢٨ : (يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) وليس لهذه التسمية ذكر فى الإنجيل . بل الثابت ـ فى القرآن والأناجيل ـ أن مريم هى ابنة عمران (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها) [التحريم ٢٨] وعمران هذا هو من نسل داود ـ عليه السلام ـ أى من سبط ونسل يهوذا ، وليس من سبط ونسل هارون (سبط اللاويين) .. فكيف دعاها القرآن (أخت هارون) ؟ هذا هو التساؤل والاعتراض الذى يورده البعض شبهة على القرآن الكريم . والحقيقة ، التى تُفهم من السياق القرآنى ، أن تسمية مريم بـ (أخت هارون) ، ليست تسمية قرآنية ، وإنما هى حكاية لما قاله قومها لها ، وما خاطبوها ونادوها به عندما حملت بعيسى عليه السلام ، عندما استنكروا ذلك الحمل ، واتهموها فى عرضها وشرفها وعفافها .. فقالوا لها : (يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) [مريم : ٢٧ ، ٢٨]. فلماذا نسبها قومها إلى هارون ؟ يختلف المفسرون فى التعليل .. فمنهم من يقول : إن هارون ـ المشار إليه ـ كان رجلاً فاسقاً ، اشتهر فسقه ، فنسبها قومها إليه ، إعلاناً عن إدانتهم لها . ومن المفسرين من يقولون : إن هارون هذا كان رجلاً صالحاً مشهوراً بالصلاح والعفة فنسبها قومها إليه سخرية منها ، وتهكماً عليها ،

وتعريضاً بما فعلت ، واستهزاء بدعواها الصلاح والتقوى والتبتل فى العبادة ، بينما هى ـ فى زعمهم ـ قد حملت سفاحاً . وقيل : إنه كان لها أخ من أبيها اسمه هارون ، وكان من عباد وصلحاء بنى إسرائيل ، فنسبوها إليه .. واسم هارون من الأسماء الشائعة فى بنى إسرائيل .. [انظر فى ذلك قصص الأنبياء ص ٣٨٣ ، ٢٨٤ ، والقرطبى ج ١١ ص ١٠٠ ، ١٠١ ، والكشاف ج ٢ ص ٥٠٨] . والشاهد من كل ذلك أن هذه التسمية لمريم بـ (أخت هارن) ليست خبراً قرآنياً ، وإنما هى حكاية من القرآن الكريم لما قاله قومها .. وهذه الاحتمالات التى ذكرها المفسرون تعليلاً لهذه التسمية هى اجتهادات مستندة إلى تراث من التاريخ والقصص والمأثورات .

الشبهة الثامنة

حسب القرآن وأقوال المفسرين ، ألقى نمروذ بإبراهيم فى النار [٢١ : ٦٨ ـ ٦٩] ، وليس من المعقول أن يكون نمروذ حياً فى زمن إبراهيم ـ عليه السلام [الكتاب المقدس : سفر التكوين : ٨ : ١٠ ـ ١١ ، ١٠ : ٢٢ ـ ٢٥ ، ١١ : ١٣ ـ ٢٦] .

الجواب:

فى قصص القرآن الكريم عن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ مشاهد عديدة .. منها معجزة نجاته من التحريق بالنار ، بعد أن حطم أصنام قومه التى يعبدون : (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) [الأنبياء : ٦٨ ـ ٧٠] . ويحكى القرآن " محاجة " إبراهيم للملك ـ فى سورة البقرة ـ : (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين) [البقرة : ٢٥٨] .
والقرآن الكريم لم يسم الملك الذى حاج إبراهيم فى ربه .. لأن قصد القرآن من القصص هو مضمون المحاجة ، والعبرة منها ، واسم الملك لا يقدم ولا يؤخر فى المضمون والعبرة .. أما تسمية هذا الملك ـ الذى حاجه إبراهيم ـ بـ (النمروذ) والاختلاف فى نطق اسمه ، ومدة ملكه .. فجميعها قصص تاريخى ، أورده المفسرون .. فهو غير ملزم للقرآن الكريم [القرطبى ج ٣ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥ ، والكشاف ج ١ ص ٣٨٧ ـ ٣٨٩] . ومن ثم لا يصح أن يورد ذلك كشبهة تثار ضد القرآن .. فليس لدينا فى التاريخ الموثق والمحقق ما يثبت أو ينفى أن اسم الملك الذى حاج إبراهيم الخليل فى ربه هو (النمروذ) .. وإنما هو قصص تاريخى يحتاج إلى تحقيق .

ولقد راجعت العهد القديم ، فى المواضع التى جاء ذكرها فى السؤال [سفر التكوين : ٨ : ١٠ ، ١١ ، ١٠ : ٢٢ ـ ٢٥ ، ١١ : ١٣ ـ ٢٦] وهى تحكى عن قبائل نوح ، ومواليد ابنه سام ، فلم أجد فيها ذكراً للملك (النمروذ) . وفى (دائرة المعارف الإسلامية) التى كتبها المستشرقون ، وقد حرر مادة (إبراهيم) فيها (ج . ايزبرغ) ، يأتى ذكر الملك نمروذ فى قصة إبراهيم دون اعتراض ، وفى أثنائها إشارات إلى مصادر عبرية أشارت إلى النمروذ ، منها (دلالة الحائرين) لموسى بن ميمون : الفصل ٢٩ .. ومنها (سفر هياشار) : فصل نوح وتأتى الإشارة إلى (نمروذ) الملك فى سفر التكوين ـ بالعهد القديم ـ الأصحاح ١٠ : ٨ ـ ١١ باعتباره " الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض " .. وبه كان يضرب المثل فى التجبر .. " وان ابتداء مملكته بابل وآرك وأكد وكلنة من أرض شنغار . من تلك الأرض خرج أشور وبنى نينوى ... الخ. وأخيراً .. فليس هناك ما يمنع تكرار الاسم ـ (نمروذ) ـ لأكثر من ملك فى أكثر من عصر وتاريخ .. ويبقى أن الشبهة ـ إذا كانت هناك شبهة ـ خاصة بالقصص التاريخى .. ولا علاقة لها بالقرآن الكريم .

الشبهة التاسعة

يمدح القرآن الإسكندر الأكبر (ذو القرنين) كعبد صالح يؤمن بالله [١٨ : ٨٧ ـ ٨٨] . ولكن جميع مؤرخى الإغريق يجمعون على أنه كان من عبدة الأوثان . فكيف يصح ذلك ؟
الجواب:
فى القرآن بسورة الكهف : ٨٣ ـ ٩٨ حكاية ذى القرنين : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً . إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً) [٨٣ ، ٨٤] إلى آخر الآيات .. وخلال هذه الآيات يتبدى عدل (ذى القرنين) ، فيقول : (قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً) [٨٧ ، ٨٨]. تلك هى تسمية القرآن الكريم لهذا الملك (ذى القرنين) . أما أن ذا القرنين هذا هو الإسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق .م) فذلك قصص لم يخضع لتحقيق تاريخى بل إن المفسرين الذين أوردوا هذا القصص قد شككوا فى صدقه وصحته فابن إسحق (١٥١ هـ / ٧٦٨ م) ـ مثلاً ـ يروى عن " من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذى القرنين " أنه كان من أهل مصر ، وأن اسمه " مرزبان بن مردية اليونانى " ..

أما الذى سماه " الإسكندر " فهو ابن هشام (٢١٣ هـ ٨٢٨ م) الذى لخص وحفظ (السيرة) لابن إسحق . وهو يحدد أنه الإسكندر الذى بنى مدينة الإسكندرية فنسبت إليه . وكذلك جاءت الروايات القائلة إن (ذا القرنين) هو الإسكندر المقدونى عن (وهب بن منبه) (٣٤ ـ ١١٤ هـ / ٦٥٤ ـ ٧٣٢ م) [القرطبى ج ١١ ص ٥٠] .. وهو مصدر لرواية الكثير من الإسرائيليات والقصص الخرافى . ولقد شكك ابن إسحق ـ وهو الذى تميز بوعى ملحوظ فى تدوين ونقد القصص التاريخى ـ شكك فيما روى من هذا القصص الذى دار حول تسمية ذى القرنين بالإسكندر ، أو غيره من الأسماء .. وشكك أيضاً فى صدق ما نسب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حول هذا الموضوع .. وذلك عندما قال ابن إسحق : " فالله أعلم أى ذلك كان ؟ .. أقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك أم لا ؟ " . ويثنى القرطبى على شك وتشكيك ابن إسحق هذا ، عندما يورده ، ثم يقول : " والحق ما قال " .. أى إن الحق هو شك وتشكيك ابن إسحق فى هذا القصص ، الذى لم يخضع للتحقيق والتمحيص ، وإن يكن موقف ابن إسحق هذا ، وكذلك القرطبى ، هو لون من التحقيق والتمحيص .. فليس هناك ، إذن ، ما يشهد على أن الإسكندر الأكبر المقدونى الملك الوثنى هو ذو القرنين العادل والموحد لله .

الشبهة العاشرة

تغرب الشمس فى عين حمئة حسب القرآن [١٨ : ٨٦] ، وهذا مخالف للعلم الثابت . فكيف يقال : إن القرآن لا يتناقض مع الحقائق العلمية الثابتة ؟

الجواب:

فى حكاية القرآن الكريم لنبأ (ذى القرنين) حديث عن أنه إبان رحلته (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماً) [الكهف : ٨٦] . والعين الحمئة هى عين الماء ذات الحمأ ، أى ذات الطين الأسود المنتن . ولما كان العلم الثابت قد قطعت حقائقه بأن الأرض كروية ، وأنها تدور حول نفسها وحول الشمس ، فإن غروب الشمس ليس اختفاء فى عين أو غير عين ، حمئة أو غير حمئة .. والسؤال : هل هناك تعارض بين حقائق هذا العلم الثابت وبين النص القرآنى ؟ ليس هناك أدنى تعارض ـ ولا حتى شبهة تعارض ـ بين النص القرآنى وبين الحقائق العلمية ذلك أن حديث القرآن هنا هو عن الرؤية البصرية للقوم الذين ذهب إليهم ذو القرنين ، فمنتهى أفق

بصرهم قد جعلهم يرون اختفاء الشمس ـ غروبها ـ فى هذه البحيرة (العين الحمئة) .. وذلك مثل من يجلس منا على شاطئ البحر عند غروب الشمس ، فإن أفق بصره يجعله يرى قرص الشمس يغوص ـ رويداً رويداً ـ فى قلب ماء البحر فالحكاية هنا عن ما يحسبه الرائى غروباً فى العين الحمئة ، أو فى البحر المحيط .. وليست الحكاية عن إخبار القرآن بالحقيقة العلمية الخاصة بدوران الأرض حول الشمس ، وعن ماذا يعنيه العلم فى مسألة الغروب . وقد نقل القفال أبو بكر الشاشى محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر (٤٢٩ ـ ٥٠٧ هـ / ١٠٣٧ ـ ١١١٤ م) عن بعض العلماء تفسيراً ـ لهذه الرؤية ـ متسقاً مع الحقيقة العلمية ، فقال : " ليس المراد أنه [أى ذى القرنين] انتهى إلى الشمس مشرقاً ومغرباً حتى وصل إلى جرمها ومسها .. فهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض ، بل هى أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، وإنما المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة [أى البقاع المعمورة والمأهولة] من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة ، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض ، ولهذا قال : (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) [الكهف ٩٠] ، ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم .. " [القرطبى ج ١١ ص ٤٩ ، ٥٠] . فالوصف هو لرؤية العين ، وثقافة الرائى .. وليس للحقيقة العلمية الخاصة بالشمس فى علاقتها بالأرض ودورانها ، وحقيقة المعنى العلمى للشروق والغروب . فلا تناقض بين النص القرآنى وبين الثابت من حقائق العلوم .

الملاحظات :

أولها : إن هذه الشبهات قد أحدثها خصوم الإسلام فى العصور المتأخرة ، وليس بينها شبهة واحدة ترجع إلى عصر البعثة والوحى والتنزيل .. فأغلب هذه الشبهات تحاول الزعم بوجود تناقضات واختلافات بين آيات القرآن الكريم .. وإذا كان القرآن قد تحدى خصوم الإسلام منذ لحظة نزوله ، ليس فقط بالإتيان بشىء من مثله ، وإنما بالعثور على أى تناقض فيه ، وذلك عندما قال : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) [النساء ٨٢ ولما لم يؤثر عن أحد من خصوم الإسلام وأعداء القرآن ـ الذين تحداهم القرآن هذا التحدى ـ أنه قال بوجود أى تناقض فى هذه التناقضات المزعومة بين آيات الذكر الحكيم ، فإن جميع هذه الشبهات ـ إذن ـ طارئة ، أثارتها وتثيرها انتصارات الإسلام ورسوخ أقدامه فى الصراعات الفكرية الحديثة والمعاصرة ـ رغم الضعف والاستضعاف الذى يعيشه المسلمون .

وثانيهما : إن الكثير من هذه الشبهات إنما يعتمد على القراءة المجتزأة لبعض آيات القرآن دون بقية الآيات التى تتناول ذات الموضوع .. وفى الرد عليها لا بد من سلوك المنهاج العلمى الصحيح فى فهم القرآن وتفسيره ، منهاج رؤية الآيات التى تتناول الموضوع الواحد فى تكاملها ؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وتفسير القرآن بالقرآن سبيل أصيل من سبل الرد على كثير من هذه الشبهات .

وثالثها : إن تحديد المفاهيم الدقيقة للمصطلحات القرآنية هو طريق قويم وضرورى لإزالة الأوهام التى يتوسل بها الخصوم لإثارة كثير من الشبهات .. فهم يتعمدون التعمية والتجهيل بالمعانى الدقيقة والمفاهيم الأصيلة للمصطلحات القرآنية ، لكى يوهموا من لا يعلم بأن هناك تناقضات بين هذه المصطلحات .. وإذا كانوا يحاربوننا بالجهل والتجهيل بمعانى المصطلحات القرآنية ، فواجبنا أن نكشف زيفهم ، ونرد على شبهاتهم باستخدام المعاجم اللغوية وكشافات مفاهيم المصطلحات القرآنية ، لنرد بالعلم والتعليم على الجهل والتجهيل.

ورابعها : إننا يجب أن نحذر من تحميل القرآن أوزار القصص الخرافى والمأثورات التى لا سند لها والمرويات التى لا عقل فيها .. فالقرآن حكم وحاكم ، ولا يصح أن نحمله أوزار الأساطير والإسرائيليات .. وكثير من الشبهات مصدرها هذه الروايات والأقاصيص ، وليس القرآن الكريم .. ولذلك فإن الرجوع إلى النص القرآنى ، وإلى المصادر الإسلامية المعتمدة والمعتبرة ، هو السبيل لكشف الكثير من هذه الشبهات .

وخامسها : إن إخلاص النية لله ، فى مثل هذه الأعمال ، هو باب الفتوحات الإلهية التى تيسر للإنسان الفقه الذى يرد به على هذه الشبهات وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول : " من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين " [رواه البخارى ومسلم وابن ماجه والدارمى والإمامان مالك وأحمد] [٨].

[٨] شبهات حول القران محمد عمارة

الرد على الأخطاء اللغوية المزعومة حول القرآن الكريم

يتهجم المنصرون والمستشرقون وجهلة اللغة العربية على بعض الصور النحوية أو البلاغية التى لا يفهمونها فى القرآن الكريم ، سواء أكان هذا عن عمد أم عن جهل، فهو نفس حال الذى يريد أن يخبأ نور الشمس بمنديل يمسكه فى يديه.

١ - رفع المعطوف على المنصوب

س ١٠٦: جاء في سورة المائدة ٥: ٦٩ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ). وكان يجب أن ينصب المعطوف على اسم إن فيقول والصابئين كما فعل هذا في سورة البقرة ٢: ٦٢ والحج ٢٢: ١٧.

الجواب : لو كان في الجملة اسم موصول واحد لحق لك أن تنكر ذلك ، لكن لا يلزم للاسم الموصول الثاني أن يكون تابعا لإنَّ. فالواو هنا استئنافية من باب إضافة الجُملة للجملة ، وليست عطفا على الجملة الأولى.

لذلك رُفِعَ (والصابئون) للإستئناف (اسم مبتدأ) وخبره محذوف تقديره والصابئون كذلك أى فى حكمهم. والفائدة من عدم عطفهم على مَن قبلهم هو أن الصابئين أشد الفرق المذكورين فى هذه الآية ضلالاً ، فكأنه قيل: كل هؤلاء الفرق إن آمنوا وعملوا الصالحات قَبِلَ اللهُ تَوْبتهم وأزال ذنبهم ، حتى الصابئون فإنهم إن آمنوا كانوا أيضاً كذلك. و هذا التعبير ليس غريبا في اللغة العربية، بل هو مستعمل فيها كقول بشر بن أبي خازم الأسدي الذي قال : إذا جزت نواصي آل بدر فأدوها وأسرى في الوثاق *** وإلا فاعلموا أنـا وأنـتم بغـاة ، ما بقـينا في شـقاق والشاهد في البيت الثاني حيث (أن) حرف مشبه بالفعل، (نا) اسمها في محل نصب، و(أنتم) الواو عاطفة وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، وبغاة خبر أن (أو أنتم) مرفوع، والخبر الثاني محذوف، وكان يمكن أن يقول فاعلموا أنا بغاة وأنتم بغاة، لكنه عطف مع التقديم وحذف الخبر ، تنبيها على أن المخاطبين أكثر اتصافا بالبغي من قومه هو ، فقدم ذكرهم قبل إتمام الخبر لئلا يدخل قومه في البغي ـ وهم الأقل فيه ـ قبل الآخرين ونظيره أيضا الشاهد المشهور لضابئ بن الحارث البرجمي : فمن يك أمسى في المدينة رحله *** فإني وقيار بها لغريب وقيار هو جمله ، معطوف على

اسم إن منصوب بها أراد ان يقول : إني بها لغريب ، وقيار كذلك غريب ومثله أيضا قول قيس بن الخطيم: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف وقيل فيه أيضاً: إنَّ لفظ إنَّ ينصب المبتدأ لفظا ويبقى مرفوعا محلا، فيصح لغة أن تكون (والصابئون) معطوفة على محل اسم إن سواء كان ذلك قبل مجيء الخبر أو بعده ، أو هي معطوفة على المضمر في (هادوا).

٢ - نصب الفاعل

س ١٠٧: جاء في سورة البقرة ٢: ١٢٤ (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ). وكان يجب أن يرفع الفاعل فيقول الظالمون .

الجواب : ينال فعل متعدى بمعنى (يشمل أو يَعُم) كما فى الآية أى لا يشمل عهدى الظالمين، فعهدى هنا فاعل، والظالمين مفعول به.

مثال لذلك لقد ناله ظلماً، وأسفنا لما ناله من إهانة. والإمامة والعهد بالإمامة هنا معناه النبوة، وبذلك تكون جواباً من الله على طلب نبينا إبراهيم أن يجعل النبوة فى ذريته فوافقه الله إلا أنه استثنى الظالمين، كما لو أنه أراد قول (إلا الظالمين من ذريتك).وتجىء أيضاً بمعنى حصل على مثل: نال الظالم جزاءه. ومن مصادر اللغة , المعجمات القديمة التي جمعها (لسان العرب) وها هو يقول: والعرب تقول: "نالني من فلان معروف ينالني أي وصل إلي منه معروف" لسان العرب ٦٨٥/١١

٣- جعل الضمير العائد على المفرد جمعاً

س ١١٣: جاء في سورة البقرة ٢: ١٧ (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) . وكان يجب أن يجعل الضمير العائد على المفرد مفرداً فيقول ذهب الله بنوره .

الجواب : فهو هنا لم يشبه الجماعة بالواحد وإنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد. ومثال ذلك قوله: (مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثمَّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) [الجمعة ٥]. فلما أضاءت ما حوله أضاءت أيضاً للآخرين ، فكان عقاب الله أنها ذهبت بأبصارهم جميعاً، لاحظ أن الله يضرب المثل بقوم استوقد أحدهم ناراً فلمَّا أضاءت ما حول فاعل هذه النار أضاءت أيضاً حول ذهب الله بأبصار هذا القوم.

ونلاحظ أنه قال (ذهب) وهى أبلغ من أذهب لأن ذهب بالشىء اسطحبه ومضى به معه، فكأنما أراد الله أن يذكرهم أنه يرون بنور الله وفى معيته، وحيث أنهم اختاروا طريق الظلمة فقد أخذ الله نوره وتركهم فى ظلمات أنفسهم التى اختاروا البقاء فيها.

٤ - تذكير خبر الاسم المؤنث

س ١٠٨: جاء في سورة الأعراف ٧: ٥٦ (وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِين). وكان يجب أن يتبع خبر إن اسمها في التأنيث فيقول قريبة .

الجواب : إن كلمة قريب على وزن فعيل، وصيغة فعيل يستوى فيها المذكر والمؤنث.

٥ - تأنيث العدد وجمع المعدود

س ١٠٩: جاء في سورة الأعراف ٧: ١٦٠ (وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً) . وكان يجب أن يذكر العدد ويأتي بمفرد المعدود فيقول اثني عشر سبطاً .

الجواب : لأن تمييز (اثنتي عشرة) ليس هو (أسباطا) [لأن تمييز الأعداد من ١١ إلى ٩٩ مفرد منصوب] بل هو مفهوم من قوله تعالى (و قطعناهم)، والمعنى اثنتي عشرة قطعة أي فرقة، وهذا التركيب في الذروة العليا من البلاغة، حيث حذف التمييز لدلالة قوله (وقطعناهم) عليه ، وذكر وصفا ملازما لفرق بني إسرائيل وهم الأسباط بدلا من التمييز. وعند القرطبي أنه لما جاء بعد السبط (أمما) ذهب التأنيث إلى الأمم ، وكلمة (أسباطا) بدل من (اثنتي عشرة)، وكلمة (أمما) نعت للأسباط. وأسباط يعقوب من تناسلوا من أبنائه ، ولو جعل الأسباط تمييزه فقال: اثني عشر سبطا، لكان الكلام ناقصا لا يصح في كتاب بليغ؟ لأن السبط يصدق على الواحد، فيكون أسباط يعقوب اثني عشر رجلا فقط، ولهذا جمع الأسباط و قال بعدها (أمما) لأن الأمة هي الجماعة الكثيرة، وقد كانت كل فرقة من أسباط يعقوب جماعة كبيرة. [واثنتى هنا مفعول به ثانى ، والمفعول به الأول (هم)].

٦ - جمع الضمير العائد على المثنى

س ١١٠:جاء في سورة الحج ٢٢: ١٩(هذانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ). وكان يجب أن يثنّي الضمير العائد على المثنّى فيقول خصمان اختصما في ربهما.

الجواب : الجملة في الآية مستأنفة مسوقة لسرد قصة المتبارزين يوم بدر وهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة. التقدير هؤلاء القوم صاروا في خصومتهم على نوعين. وينضوي تحت كل نوع جماعة كبيرة من البشر. نوع موحدون يسجدون لله وقسم آخر حق عليه العذاب كما نصت عليه الآية التي قبلها.

٧ - أتى باسم الموصول العائد على الجمع مفرداً

س ١١١: جاء في سورة التوبة ٩: ٦٩ (وَخُضْتُمْ كَالذِي خَاضُوا). وكان يجب أن يجمع الاسم الموصول العائد على ضمير الجمع فيقول خضتم كالذين خاضوا.

الجواب : المتعلق (الجار والمجرور) محذوف تقديره كالحديث الذى خاضوا فيه. كأنه أراد أن يقول وخضتم فى الحديث الذى خاضوا هم فيه.

٨ - جزم الفعل المعطوف على المنصوب

س ١١٢: جاء في سورة المنافقون ٦٣: ١٠ (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) وكان يجب أن ينصب الفعل المعطوف على المنصوب فأَصدق وأَكون .

الجواب : وفي النقطة الخامسة يقال : إن الكلمة (وأكن) تقرأ بالنصب والجزم ، أما النصب فظاهر لأنها معطوفة على (فأُصدق) المنصوب لفظا في جواب (لولا)، وأما الجزم فلأن كلمة (فأصدق) وإن كانت منصوبة لفظا لكنها مجزومة محلا بشرط مفهوم من قوله (لولا أخرتني)،حيث إن قوله (فأصدق) مترتب على قوله (أخرتني)، فكأنه قال: إن أخرتني أصدق وأكن. وقد وضع العلماء قاعدة فقالوا: إن العطف على المحل المجزوم بالشرط المفهوم مما قبله جائز عند العرب ، ولو لم تكن الفاء لكانت كلمة أصدق مجزومة، فجاز العطف على موضع الفاء.

[فالواو هنا من باب عطف الجملة على الجملة وليست من باب عطف الفعل على الفعل ، وهو مجزوم فى باب الطلب (الأمر) لأن الطلب كالشرط.] دهم ناراً فلمَّا أضاءت ما حول فاعل هذه النار أضاءت أيضاً حول ذهب الله بأبصار هذا القوم.

٩ - جعل الضمير العائد على المفرد جمعاً

س ١١٣: جاء في سورة البقرة ٢: ١٧ (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) . وكان يجب أن يجعل الضمير العائد على المفرد مفرداً فيقول ذهب الله بنوره .

الجواب : فهو هنا لم يشبه الجماعة بالواحد وإنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد. ومثال ذلك قوله: (مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثمَّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) [الجمعة ٥]. فلما أضاءت ما حوله أضاءت أيضاً للآخرين ، فكان عقاب الله أنها ذهبت بأبصارهم جميعاً، لاحظ أن الله يضرب المثل بقوم استوقد أحدهم ناراً فلمَّا أضاءت ما حول فاعل هذه النار أضاءت أيضاً حول ذهب الله بأبصار هذا القوم. ونلاحظ أنه قال (ذهب) وهى أبلغ من أذهب لأن ذهب بالشيء اصطحبه ومضى به معه، فكأنما أراد الله أن يذكرهم أنه يرون بنور الله وفى معيته، وحيث أنهم اختاروا طريق الظلمة فقد أخذ الله نوره وتركهم فى ظلمات أنفسهم التى اختاروا البقاء فيها.

١٠ - نصب المعطوف على المرفوع

س ١١٤: جاء في سورة النساء ٤: ١٦٢ (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً). وكان يجب أن يرفع المعطوف على المرفوع فيقول والمقيمون الصلاة .

الجواب : (والمقيمين الصلاة) أي وأمدح المقيمين الصلاة، وفي هذا مزيد العناية بهم، فالكلمة منصوبة على المدح. [هذه جملة اعتراضية بمعنى (وأخص وأمدح) وهى مفعول به لفعل محذوف تقديره (وأمدح) لمنزلة الصلاة ، فهى أول ما سيحاسب عليه المرء يوم القيامة. وفيها جمال بلاغى حيث يلفت فيها آذان السامعين لأهمية ما قيل. أما (والمؤتون) بعدها على الرفع فهى معطوفة على الجملة التى قبلها.]

١١- نصب المضاف إليه

س ١١٥: جاء في سورة هود ١١: ١٠ (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ). وكان يجب أن يجرَّ المضاف إليه فيقول بعد ضراءِ .

الجواب : يعرف دارسى اللغة العربية أن علامات جر الاسم هى (الكسرة أو الياء أو الفتحة فى الممنوع من الصرف): فيجر الاسم بالفتحة فى المفرد وجمع التكسير إذا كانت مجردة من ال والإضافة وتُجَر الأسماء الممنوعة من الصرف بالفتحة حتى لو كانت مضافة ، ولا يلحق آخرها تنوين. وتسمى الكسرة علامة الجر الأصلية، وتسمى الياء والفتحة علامتى الجر الفرعيتين. ويمنع من الصرف إذا كان على وزن صيغة منتهى الجموع أى على وزن (أفاعل – أفاعيل – فعائل – مفاعل – مفاعيل – فواعل – فعاليل) مثل: أفاضل – أناشيد – رسائل – مدارس – مفاتيح – شوارع – عصافير. والاسم المؤنث الذى ينتهى بألف التأنيث المقصورة (نحو: سلوى و نجوى) أو بألف التأنيث الممدودة (نحو: حمراء – صحراء – أصدقاء) سواء أكان علماً أم صفة أم اسماً ، وسواء أدلَّ على مفرد أم دلَّ على جمع. لذلك فتح ضرَّاءَ لأنه اسم معتل آخره ألف تأنيث ممدودة وهى ممنوعة من الصرف. وما يُمنع من الصرف تكون علامة جره الفتحة عوضا عن الكسرة ما لم يضف أو يعرف بـ(أل) التعريف .

عدم عصمة الانبياء

المتتبع للمروجين لفرية عدم عصمة الأنبياء، يهون عليه أنه يجدهم جميعاً من أصحاب المنافع والشهوات، أو من أصحاب الأغراض، وأرباب الهوى٠ وقد استند هؤلاء المشاغبون فى عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى بعض النصوص القرآنية والنبوية التى قد يتوهم من ظاهرها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان فى ضلال أو غفلة قبل نبوته، أو فى شك، وتأثير للشيطان، عليه بعد البعثة، وكلك نصوص وردت فيها بعض التنبيهات الموجهة مباشرة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى القرآن الكريم(٤) وهذه التنبيهات قد تبدو فى الظاهر وكأنها تمس عصمته - صلى الله عليه وسلم -، فأخذوا يلوون تلك النصوص، ويحملونها من المعانى مالا تحتمل، إلا أنهم لن يستطيعوا بهذه الحيلة أن يضللوا الأمة٠ وسوف أعرض لهذه النصوص والتنبيهات، وأبين التوجيه الصحيح لها بما يبين الحق، ويصحح الفهم، ويزيل ما يقع من الوهم إن شاء الله تعالى، آملاً منه عز وجل التوفيق والهداية إلى ما فيه السداد، وحسن الأدب فى بيان المراد. فإلى بيان ذلك فى المبحثين التاليين٠

المبحث الأول : شبهاتهم من القرآن الكريم على عدم عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى عقله وبدنه والرد عليها.

المطلب الأول

شبهتهم حول آيات ورد فيها إسناد "الضلال" و"الغفلة" إلى ضمير خطابه - صلى الله عليه وسلم - والجواب عنها

احتج المشاغبون الذاهبون إلى نفى العصمة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى قلبه وعقيدته قبل البعثة وبعدها، بما ورد من آيات أسند فيها "الضلال" و"الغفلة" إلى ضمير خطابه - صلى الله عليه وسلم -، وحملوها على الكفر فى حقه - صلى الله عليه وسلم - كقوله تعالى : { قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب } (١) وقوله عز وجل : { ووجدك ضالاً فهدى } (٢) وقوله سبحانه : { نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين } (٣)٠

ويجاب عن ما سبق بما يلى :

أولاً : حمل أعداء الإسلام، وأعداء السنة المطهرة، والسيرة العطرة كلمتى "الضلال" والغفلة، فى الآيات على الكفر والغى والفساد! وهذا تعسف باطل فى تأويل الآيات، ومرفوض من وجوه:

الأول : أنه قبل النبوة لم يكن هناك شرعاً قائماً حتى يوصف المنحرف عنه بالضلال٠

الثانى : ما ثبت بإجماع الأمة قاطبة من عصمة الأنبياء قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر(١)٠

الثالث : ما ثبت بالتواتر عن حال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نشأته قبل النبوة من عصمة ربه عز وجل له من كل ما يمس عقيدته وخلقه بسوء على ما سبق تفصيله(٢)٠

ثانياً : إن تأويل أعداء الإسلام للآيات يرفضه القرآن الكريم، حيث وردت فيه كلمة "الضلال" مراداً بها أكثر من معنى، منها ما يلى :

ضلال بمعنى الكفر فى نحو قوله تعالى : { ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون } (٣)٠

ضلال بمعنى النسيان فى نحو قوله تعالى : { أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى } (٤) أى أن تنسى إحدى المرأتين، فتذكر إحداهما الأخرى٠

ضلال بمعنى الغفلة فى نحو قوله سبحانه على لسان سيدنا موسى عليه السلام لفرعون : { قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين } (٥) ضلال بمعنى المحبة فى نحو قوله عز وجل على لسان أولاد سيدنا يعقوب : { إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين } (١) أى فى حب مبين ليوسف، وهو المشار إليه فى قوله تعالى على لسانهم أيضاً : { قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم } (٢) وكذلك قوله سبحانه على لسان نسوة المدينة : { وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين } (٣) أى حب مبين ليوسف عليه السلام٠

ولما كان الضلال فى لسان أهل اللغة : العدول عن الطريق المستقيم، وضده الهداية، كان كل عدول ضلال، سواء كان عمداً أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، ومن هنا صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء، وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون بعيد(٤)٠

وعلى الوجهين الثالث والرابع تفسر آية : { ووجدك ضالاً فهدى } ونحوها، ويكون المعنى على الوجه الرابع : ووجدك محباً للهداية فهداك إليها، ويشهد لصحة هذا الوجه والتأويل ما يلى :

أ- ما صح من سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل النبوة، وتحنثه فى غار حراء طلباً للهداية، حتى نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحى(٥)٠

ب- أن من أسماء المحبة عند العرب "الضلال" قال الشاعر :

هذا الضلال أشاب منى المفرقا ... *** ... والعارضين ولم أكن متحققا

عجباً لعزة فى اختيار قطيعتى ... *** ... بعد الضلال فحبلها قد أخلفا(٦)٠

قال الإمام الزرقانى(١) : وهذا أى الوجه الرابع، وتأويل الضلال بمعنى المحبة منقول عن قتادة، وسفيان الثورى، فلا يضر عدم وجوده فى الصحاح وأتباعه، فاللغة واسعة(٢)، وقال الدكتور عبد الغنى عبد الخالق : وهذا قول حسن جداً(٣) ويكون المعنى على الوجه الثالث : { ووجدك ضالاً فهدى } أى وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك أى فأرشدك٠

والضلال هنا : بمعنى الغفلة كقوله تعالى : { لا يضل ربى ولا ينسى } (٤) أى لا يغفل ولا يسهو جل جلاله عن شئ فى السماوات والأرض وما فيهن(٥) وقال تعالى فى حق نبيه - صلى الله عليه

وسلم -: { نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين } (٦) أى لم تكن تدرى القرآن، والشرائع وما فيها من قصص الأنبياء، فهداك الله عز وجل إلى ذلك، وهو معنى قوله تعالى : { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم } (٧)٠ والغفلة فى حق الأنبياء لا جهل فيها، لأن الجاهل لا يسمى غافلاً حقيقة لقيام الجهل به، فصح أن ضلال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غفلة لا جهل(١) وقد روى هذا التأويل والوجه بعينه عن ابن عباس، وجماعة من المفسرين، وجماعة من أهل التأويل(٢)٠

وقيل : الضلال فى الآيات بمعنى التحير، ولهذا كان - صلى الله عليه وسلم - يخلو بغار حراء فى طلب ما يتوجه به إلى ربه، ويتشرع به؛ حتى هداه الله إلى الإسلام(٣) وهذا التأويل قريب من الوجه السابق ٠وبقيت وجوه أخرى من التأويل ذكرها أهل العلم(٤) وأقواها ما اكتفيت بذكره أما ما استدلوا به من قوله - صلى الله عليه وسلم - على ما حكاه عنه القرآن الكريم : { قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب } (١) وزعمهم بأن نسبة الضلال إلى نفسه - صلى الله عليه وسلم - يعنى أنه غير معصوم منه حتى بعد النبوة، فلا حجة لهم فى التعلق بظاهر هذه النسبة! لأن نسبة الضلال إلى نفسه - صلى الله عليه وسلم - جاءت منه على جهة الأدب مع ربه عز وجل، وهكذا الأنبياء جميعاً إذا مسهم ضر نسبوه إلى الشيطان على جهة الأدب مع الحق جل جلاله، لئلا ينسبوا له فعلاً يكره، مع علمهم أن كلا من عند الله تعالى، قال الخليل عليه السلام : { وإذا مرضت فهو يشفين } (٢) وقال الخضر عليه السلام : { فأردت أن أعيبها } (٣) أى السفينة، مع أن فعله كان بأمره عز وجل كما قال عز وجل على لسانه : { وما فعلته عن أمرى } (٤) وقال موسى عليه السلام : { هذا من عمل الشيطان } (٥) وقال نبينا - صلى الله عليه وسلم - : "والخير كله فى يديك، والشر ليس إليك"(٦) يعنى : ليس إليك يضاف الشر وصفاً لا فعلاً، وإن كان الفعل كله من عند الله عز وجل كما قال : { وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا } (٧)٠

أما الشرط فى الآية { إن ضللت } فلا يقتضى الوقوع ولا الجواز، فالضلال لا يقع منه - صلى الله عليه وسلم -، ولا يجوز أن يقع منه، لا قبل النبوة ولا بعدها، بمقتضى عصمة الله عز وجل له، ألا ترى كيف قال الله تعالى : { لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم } (١) والمعنى: لولا ما عصمناه ورحمناه، لأتى ما يذم عليه، على فرض الإمكان، لا على فرض الوقوع٠

وكذلك قوله تعالى : { ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ } (٢) والمعنى : لولا فضل الله عليك يا رسول الله، بالعصمة ورحمته إياك، لهمت طائفة منهم أن يضلوك، على فرض الإمكان، لا على فرض الوقوع، بدليل بقية الآية : { وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ } (٣) وقال تعالى : { وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً } فهذه الآية كسابقتها من جملة الآيات المادحة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لا أنها من المتشابهات٠

ومعناها : "لولا وجود تثبيتنا إياك، لقد قاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً من أدنى الميل، لكن امتنع قرب ميلك وهواك لوجود عصمتنا وتثبيتنا إياك"(٤)٠ فتأمل كيف بدأ بثباته وسلامته بالعصمة، قبل ذكر ما عتبه عليه، وخيف أن يركن إليه، على فرض الإمكان لا على فرض الوقوع. وتأمل كيف جاء فى أثناء عتبه - إن كان ثم عتب - براءته - صلى الله عليه وسلم -، وفى طى تخويفه تأمينه وكرامته صلوات الله وتسليمه عليه(٥)٠

وصفوة القول : أن ما استدل به من آيات على عدم عصمته - صلى الله عليه وسلم - لا حجة لهم فيها لأن تلك الآيات الكريمات هى فى حقيقة الأمر واردة فى مقام المنة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ومع تلك المنَّة يستحيل ما استدلوا به على عدم عصمته - صلى الله عليه وسلم - وتأمل معى آية سبأ : { قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب } (١) فهل مع منَّة النبوة، ونزول وحى الله تعالى إليه يكون ضلال؟ هل يعقل هذا؟ وكذلك آية يوسف : { نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين } (٢) فهل مع منة الوحى، ونزول القرآن عليه يجوز فى حقه - صلى الله عليه وسلم - غفلة جهل، سواء قبل النبوة أو بعدها؟! وكذلك ما استدلوا به من آية الضحى : { ووجدك ضالاً فهدى } تجدها آية كريمة وردت فى سورة عظيمة أقسم رب العزة فى أولها بالضحى، والليل إذا أقبل بظلامه، على أنه ما ترك نبيه - صلى الله عليه وسلم -، وما أبغضه، وهذا من كمال عنايته عز وجل فى رد ما قال المشركون للنبى - صلى الله عليه وسلم -، ثم أخذ رب العزة يعدد فى ضمن نفى التوديع والقلى : { ما ودعك ربك وما قلى } (٣) نعمه على حبيبه ومصطفاه فى الدنيا والآخرة، وآمراً له بأن يحدث بها قال تعالى : { وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى. ألم يجدك يتيماً فأوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث } (٤) فتأمل كيف وردت آية { ووجدك ضالاً فهدى } فى معرض الثناء والمدح، والمنَّة عليه - صلى الله عليه وسلم - بنعم لا تعد ولا تحصى. فهل يعقل أن يكون مراداً بالضلال فى هذا المقام ضلال الكفر والفساد؟!! كيف وقد

عصمه رب العزة من ذلك قبل نبوته، وهو ما تشهد به سيرته العطرة، على ما سبق تفصيله فى مبحثى الفصل الأول دلائل عصمته فى عقله وبدنه من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ كما شهد رب العزة بعصمته من الضلال بعد نبوته فى قوله تعالى : { ما ضل صاحبكم وما غوى } (١) مع تأكيد النفى بالقسم بقوله عز وجل : { والنجم إذا هوى } (٢)٠

وتأمل دلالة كلمة "صاحبكم" فى قوله { ما ضل صاحبكم وما غوى } ولم يقل : محمد، أو رسول الله، أو نحو ذلك. تأكيداً لإقامة الحجة على المشركين بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به، وبحاله، وأقواله، وأعماله، منذ نشأته بينهم بالأمانة، والصدق ورجاحة العقل، والخلق القويم، وأنهم لا يعرفونه بكذب، ولا غى، ولا ضلال فى العقيدة أو الأخلاق، وبالجملة : لا ينقمون عليه أمراً واحداً قط، وقد نبه الله تعالى على هذا المعنى بقوله عز وجل : { قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون } (٣) وقال سبحانه : { أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون } (٤)٠

هذا وفى القسم بالنجم، إشارة إلى أنه - صلى الله عليه وسلم - يهتدى به كما يهتدى بالنجم، ومن يهتدى به، وحث رب العزة على الاقتداء به، يستحيل فى حقه الضلال٠ إن الآية الكريمة { ما ضل صاحبكم وما غوى } مسوقة لتبرئته - صلى الله عليه وسلم - مما رماه به المشركون قديماً من الضلال والغى، وهى أيضاً مسوقة لتبرئته - صلى الله عليه وسلم - مما رماه به أذيالهم حديثاً من تفسير الضلال والغفلة، بالكفر والفساد. فوجب أن يكون النفى عاماً فى الضلال والغى قبل النبوة وبعدها٠ وهو ما يدل عليه اللفظ العربى، ويقتضيه سياق الآية، إذ من المعلوم فى اللفظ العربى أن الفعل إذا ما وقع فى سياق النفى أو الشرط، دل على العموم وضعاً بلا نزاع٠

زد على هذا أن الأفعال بمنزلة النكرات، والنكرة تعم، فكأنه قال : ما صدر منه - صلى الله عليه وسلم - ضلال لا فى عقيدة ولا فى خلق لا قبل النبوة ولا بعدها(١)٠ والمفسرون حين عمموا الآية فى جميع الضلال قبل النبوة وبعدها، قالوا بما يدل عليه اللفظ العربى دلالة وضعية لغوية، وبما يقتضيه سياق الآية، وبما تشهد به سيرته - صلى الله عليه وسلم - من كمال عقله وخلقه قبل النبوة وبعدها، وعصمته فى قلبه وعقيدته من الكفر والشرك، والشك، والضلال، والغفلة، على ما سبق تفصيله(٢) أهـ٠ والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم.

المطلب الثانى : شبهتهم حول آيات ورد فيها إسناد "الذنب" و"الوزر" إلى ضمير خطابه - صلى الله عليه وسلم - والجواب عنها

مما استدل به الطاعنون فى عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم -، وزعموه أدلة على جواز الكبائر والصغائر عنه - صلى الله عليه وسلم -، قبل النبوة وبعدها، ما ورد فى القرآن الكريم من آيات أسند فيها "الذنب" و"الوزر" إلى ضمير خطابه - صلى الله عليه وسلم -، كقوله تعالى : { فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك } (٣) وقوله سبحانه : { ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر } (٤) وقوله عز وجل : { ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك } (٥)٠

ويجاب عن ما زعموا بما يلى :

أولاً : إن ظاهر ما استدلوا به على عدم عصمته - صلى الله عليه وسلم -، لا حجة لهم فيه، لأن ظاهره غير مراد، لمن تفكر فى سياق الآيات التى ورد فيها كلمتى : "الذنب، والوزر"!٠ وهو سياق يظهر منَّة الله عز وجل على رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وبيان عظيم مكانته وفضله عند ربه عز وجل فى الدنيا والآخرة، مما يؤكد أن ظاهر ما يطعن فى عصمته غير مراد، وإنما هو فى حقيقة الأمر من جملة ما يمدح به - صلى الله عليه وسلم -. وتأمل معى قوله تعالى : { ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك } إنها آية كريمة وردت بين منتين :

الأولى : شرح الصدر فى قوله تعالى : { ألم نشرح لك صدرك } (١) شرحاً حسياً ومعنوياً، ليسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق جميعاً، وليكون موضع التجليات ومهبط الرحمات(٢)٠

والثانية : رفع ذكره فى قوله تعالى : { ورفعنا لك ذكرك } (٣) رفعاً بلغت قمته فى الشهادة التى لا يكون الشخص مسلماً إلا إذا نطق بها، فضلاً عن قرن اسمه - صلى الله عليه وسلم - باسمه عز وجل فى الآذان، والإقامة، والتشهد فى الصلاة، وفى خطب الجمعة، والعيدين، وفى خطبة النكاح، وجعل الصلاة والتسليم عليه - صلى الله عليه وسلم - عبادة على المسلمين(٤)٠

وتأمل معى أيضاً ما استدلوا به من قوله تعالى : { ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر } إن سياق الآية مع ما قبلها وما بعدها تجدها لا تحتمل إلا وجهاً واحداً، وهو تشريف النبى - صلى الله عليه وسلم -، من غير أن يكون هناك ذنب، ولكنه أريد أن يستوعب فى الآية جميع أنواع النعم الأخروية والدنيوية : أما الأخروية فشيئان :

سلبية وهى غفران الذنوب، وإن لم يكن للمخاطب - صلى الله عليه وسلم - ذنب، ولو لم يذكر غفرانها لكان فى ذلك ترك استيعاب جميع أنواع النعم٠وثبوتية وهى لا تتناهى أشار إليها رب العزة بقوله تعالى : { ويتم نعمته عليك } (١) وجميع النعم الدنيوية شيئان أيضاً :

دينية أشار إليها بقوله تعالى : { ويهديك صراطاً مستقيماً } (٢) أى يثبتك على دين الإسلام٠

ودنيوية وهى قوله تعالى : { وينصرك الله نصراً عزيزاً } (٣) أى نصراً لا ذل معه وقدم النعم الأخروية على الدنيوية، وقدم فى الدنيوية الدينية على غيرها تقديماً للأهم فالأهم فانتظم بذلك تعظيم قدر النبى - صلى الله عليه وسلم - بإتمام أنواع نعم الله عليه المتفرقة فى غيره، ولهذا جعل ذلك غاية للفتح المبين الذى عظمه وفخمه بإسناده إليه بنون العظمة، وجعله خاصاً بالنبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله "لك"(٤) فهل يعقل فى مقام المنَّة هذا، أن يكون المراد بالذنب والوزر ظاهرهما؟!

ثانياً : إن هذه الألفاظ التى يتعارض ظاهرها مع العصمة تحتمل وجوهاً من التأويل :

تخريجها على مقتضى اللغة بما يناسب سياقها فى الآيات، فالوزر فى أصل اللغة الحمل والثقل(٥) قال تعالى : { حتى تضع الحرب أوزارها } (٦) أى أثقالها، وإنما سميت الذنوب بأنها أوزاراً لأنها تثقل كاسبها وحاملها، وإذا كان الوزر ما ذكرناه، فكل شئ أثقل الإنسان وغمه وكده، وجهده، جاز أن يسمى وزراً، تشبيهاً بالوزر الذى هو الثقل الحقيقى٠ وليس يمتنع أن يكون الوزر فى الآية ثقل الوحى، كما قال عز وجل : { إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً } (١) وعبء التبليغ، وثقل الدعوة، حيث كان الاهتمام بهما يقض مضجعه، حتى سهلهما الله تعالى عليه، ويسرهما له، ويقوى هذا التأويل، سياق الآية الواردة فى مقام الامتنان عليه - صلى الله عليه وسلم - وقوله عز وجل : { فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً } (٢) والعسر بالشدائد والغموم أشبه، وكذلك اليسر بتفريج الكرب، وإزالة الغموم والهموم أشبه (٣)٠

فإطلاق الوزر من باب الاستعارة التصريحية كما هو معلوم. وفى قراءة ابن مسعود وحللنا عنك وقرك(٤) والوقر الحمل، وهذه القراءة تؤيد ما قررناه(٥)٠ أن "الوزر" و"الغفران" فى الآيتين مجازاً عن العصمة، والمعنى : عصمناك عن الوزر الذى أنقض ظهرك، لو كان ذلك الذنب حاصلاً، كما قال عز وجل : { ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ } (٦) وقوله عز وجل : { وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً

قليلاً } (٧) والمعنى : لولا عصمتنا ورحمتنا لأتيت ما تذم عليه، على فرض الإمكان، لا على فرض الوقوع على ما سبق شرحه(٨)٠

"فسمى رب العزة العصمة "وضعاً" على سبيل المجاز، وإنما عبر عنها به، لأن الذنب يثقل الظهر بعقابه، وبالندم عليه فى حالة التوبة منه. والعصمة لكونها تمنع وقوع الذنب، تريح صاحبها من ثقل عقابه، ومن ثقل الندم عليه، فعبر عنها بالوضع لذلك"(١)٠

ويشهد لصحة هذا القول : سيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - قبل النبوة، من عصمة رب العزة له - صلى الله عليه وسلم - من كل ما يمس قلبه وعقيدته بسوء، من أكل ما ذبح على النصب، والحلف بأسماء الأصنام التى كان يعبدها قومه، واستلامها، وكذا عصمته من كل ما يمس خلقه بسوء، من أقذار الجاهلية ومعائبها، من اللهو، والتعرى، وكذا تشهد سيرته - صلى الله عليه وسلم - بعد النبوة، من عصمة رب العزة له - صلى الله عليه وسلم - مما عصمه به قبل النبوة، ومن أن يضله أهل الكفر، وأنى لهم ذلك وقد نفاه الله تعالى : { وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ } (٢) كما عصمه ربه عز وجل من أن يفتنوه عن الوحى أو التقول عليه، ولو حدث شئ من ذلك، لوقع عقاب ذلك، الوارد فى قوله سبحانه : { إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً } (٣) وقوله عز وجل : { ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين } (٤)٠

فهل نقل إلينا ولو بطريق ضعيف أن رب العزة عاجله بالعقوبة فى الدنيا مضاعفة؟ أو تخلى عن نصرته؟

الإجابة بالقطع لا، لم ينقل إلينا، وهو ما يؤكد أن الخطاب فى آيات الشرط { ولولا أن ثبتناك } و { ولو تقول علينا بعض الأقاويل } ونحو ذلك، على فرض الإمكان، لا على فرض الوقوع، وبتعبير آخر الشرط فى تلك الآيات لا يقتضى الوقوع ولا الجواز٠وإذا صح تسمية العصمة "وضعاً" فى قوله تعالى : { ووضعنا عنك وزرك } (١) مجازاً، صحح أيضاً إطلاق المغفرة كناية عن العصمة فى قوله تعالى : { ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر } (٢) إذ الغفر الستر والغطاء(٣) والمعنى فى الآية : ليعصمك الله فيما تقدم من عمرك، وفيما أخر منه٠

قال الإمام السيوطى(٤) : "وهذا القول فى غاية الحسن، وقد عد البلغاء من أساليب البلاغة فى القرآن؛ أنه يكنى عن التخفيفات بلفظ المغفرة، والعفو، والتوبة، كقوله تعالى عند نسخ قيام الليل : { علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءُوا ما تيسر من القرآن } (٥) وعند نسخ تقديم الصدقة بين يدى النجوى قال سبحانه : { فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم } (٦) وعند نسخ تحريم الجماع ليلة

الصيام قال عز وجل : { فتاب عليكم وعفا عنكم } (٧)٠ووجه إطلاق المغفرة كناية عن العصمة : أن العصمة تحول بين الشخص وبين وقوع الذنب منه، والمغفرة تحول بين الشخص وبين وقوع العقاب عليه، فكنى عن العصمة بالمغفرة بجامع الحيلولة؛ لأن من لا يقع منه ذنب، لا يقع عليه عقاب٠

واختيرت هذه الكناية - أعنى الاستعارة - لأن المقام مقام امتنان عليه - صلى الله عليه وسلم -. ثم المعنى بعد هذا : ليظهر الله عصمتك للناس، فيروا فيك حقيقة الإنسان الكامل، ويلمسوا منك معنى الرحمة العامة، لا تبطرك عزة الفتح، ونشوة النصر، فلا تنتقم، ولا تتشفى، ولكن تعفوا وتغفر(١)٠ولهذا دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة يوم الفتح مطاطئاً رأسه حتى كاد يمس مقدمة رحله، وهو راكب على بعيره تواضعاً لله عز وجل(١).وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعاً"(٢) وفى نفس الوقت كان يرجع(٣) فى تلاوته، وهو على مشارف مكة سورة الفتح(٤) وهذا يعنى أنه - صلى الله عليه وسلم - كان مندمجاً فى حالة من العبودية التامة لله تعالى، شكراً له عز وجل، على هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى، ولهذا كان - صلى الله عليه وسلم - يكثر من الاستغفار والعبادة شكراً لله سبحانه على ذلك، وليس كما يفهم أعداء الإسلام، وخصوم السنة المطهرة أنه استغفار لذنبه(٥) لأن الاستغفار ليس خاصاً بالذنوب، بل له حِكَمٌ كثيرة، على رأسها : شكر الله عز وجل على نعمه، ولذا جاء الأمر به للنبى - صلى الله عليه وسلم - شكراً لله عز وجل بنصره على أعدائه، وفتح مكة له، قال تعالى : { إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا } (١) وامتثل النبى - صلى الله عليه وسلم - لهذا الأمر الإلهى كما جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها قالت : "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكثر من قول : "سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه" قالت : فقلت : يا رسول الله! أراك تكثر من قول : "سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه؟" فقال : خبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها "إذا جاء نصر الله والفتح - فتح مكة - ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً"(٢)٠

وعصمته - صلى الله عليه وسلم - من الذنب فيما تقدم من عمره، وفيما أخر منه، من أعظم النعم التى قام النبى - صلى الله عليه وسلم - بشكرها، بالاستغفار، والقيام بين يدى الله عز وجل حتى تورمت قدماه٠

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، إذا صلى، قام حتى تفطر رجلاه، قالت عائشة : يا رسول الله! أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : "يا عائشة! أفلا أكون عبداً شكوراً"(٣) والمعنى : "أن المغفرة سبب لكون التهجد شكراً فكيف أتركه؟"(٤)٠

وعلى ما تقدم فقوله تعالى : { واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات } ونحوها من الآيات مراداً بها الحث على دوام الاستغفار والشكر لله عز وجل، على ما أنعم عليه من العصمة٠ وأقول : إذا لم يسلم الخصم بما سبق من تأويل آيات الذنب والوزر الواردة فى حقه - صلى الله عليه وسلم -، وأخذ بها على ظاهرها، فليبين لنا حقيقة الذنب والوزر الذى ارتكبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، سواء قبل النبوة أو بعدها؟!٠ إنه إن كان ثَمَّ ذنب فلن يَخْرُج عن ترك الأَوْلَى، كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين(١) وترك الأولى ليس بذنب، لأن الأولى وما يقابله مشتركان فى إباحة الفعل، والمباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح فى عصمتهم ومنزلتهم، لأنهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات(٢) مما يتقوون به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أخذ على هذه السبيل التحق طاعة، وصار قربة(٣)٠

قلت : وكيف يتخيل صدور الذنب فى حقه - صلى الله عليه وسلم -، وقد عصمه ربه عز وجل فى قوله وفعله وخاطبه بقوله سبحانه : { وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى } (١) وقال عز وجل: { لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر } (٢). "ومن تأمل إجماع الصحابة على اتباعه - صلى الله عليه وسلم - والتاسى به فى كل ما يقوله ويفعله من قليل أو كثير، أو صغير أو كبير، ولم يكن عندهم فى ذلك توقف ولا بحث، حتى أعماله فى السر والخلوة، يحرصون على العلم بها، وعلى اتباعها، عَلِمَ بهم - صلى الله عليه وسلم - أو لم يعلم، ومن تأمل أحوال الصحابة معه - صلى الله عليه وسلم - استحى من الله تعالى أن يخطر بباله خلاف ذلك"(٣)٠

ثم إن حقيقة الذنب فى اللغة ترجع إلى كل فعل يُسْتَوخَمُ عُقباَهُ كما فسره الراغب فى مفرداته(٤). وشرعاً : يرجع الذنب إلى مخالفة أمر الله تعالى أو نهيه٠ وهو أمر نسبى يختلف باختلاف الفعل والفاعل، وقصد الفاعل، فليست المخالفة من العَالم كالمخالفة من الجاهل، وليست المخالفة الواقعة عن اجتهاد، كالمخالفة التى لا تقع عن اجتهاد، وليست المخالفة الواقعة بالقصد والتعمد، كالمخالفة الواقعة بالنسيان٠

ومن هنا تختلف الذنوب ومسئولياتها بالنسبة للفاعل، والحوادث. وعلى ضوء ذلك نفهم معانى الآيات التى ورد فيها إسناد الذنب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مضافاً إلى ضمير خطابه - صلى الله عليه وسلم -(٥)٠

وصفوة القول، أن يقال : إما أن يكون صدر من رسول - صلى الله عليه وسلم - ذنب أم لا! فإن قلنا : لا، امتنع أن تكون هذه الآيات إنكاراً عليه، وقدحاً فى عصمته. وإن قلنا : إنه صدر عنه ذنب - وحاشاه الله من ذلك - فقوله تعالى : { ووضعنا عنك وزرك } وقوله سبحانه : { ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر } يدل على حصول العفو(١) وبعد حصول العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه! فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال : إن قوله تعالى { واستغفر لذنبك } وقوله سبحانه : { ووضعنا عنك وزرك } ، يدل على كون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مذنباً، أو غير معصوم!٠ وهذا جواب شاف كاف قاطع. وما فوق مقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقام أهـ٠

المطلب الثالث : شبهتهم حول آيات ورد فيها مخاطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتقوى الله عز وجل ونهيه عن طاعة الكافرين، ونهيه عن الشرك والجواب عنها

...زعم أعداء السنة المطهرة، والسيرة العطرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غير معصوم من الذنوب كبائرها وصغائرها، قبل النبوة وبعدها، ودليلهم ما ورد فى القرآن الكريم من آيات تخاطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتقوى الله عز وجل، وتنهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين والكاذبين، كما تنهاه عن التكذيب بآيات الله عز وجل، وتحذره من الشك فيما أنزل عليه، ومن الوقوع فى الشرك؛ ومن الآيات التى استشهدوا بها على ما زعموا ما يلى :

قوله تعالى : { يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين } (١)٠

وقوله سبحانه : { فلا تطع المكذبين. ودو لو تدهن فيدهنون. ولا تطع كل حلاف مهين } (٢)٠

وقوله عز وجل : { فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك } (٣)٠

وقوله : { ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين } (٤)٠

وقوله : { ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين } (٥)٠

ويجاب عن ما سبق بما يلى :

أولاً : لا حجة للخصوم فى التعلق بظاهر الآيات التى استشهدوا بها على عدم عصمته - صلى الله عليه وسلم – لِمَا صح من سيرته - صلى الله عليه وسلم - - أنه كان أتقى وأخشى خلق الله عز وجل، وما كذب بآيات ربه تعالى، ولا شك فيما أنزل عليه، ولا أشرك بالله طرفة عين أو أقل منها، ولا أطاع أحداً من الكافرين، أو المنافقين، أو الكاذبين. ومن زعم خلاف ذلك فليبينه لنا، فالأصل براءة الذمة حتى يثبت العكس، وهذه قاعدة أصولية، تحدد الأصل فى كل شئ، وهى تعنى أن كل منهم برئ حتى تثبت إدانته... فالمتهم بالشرك أو الشك، أو بأى ذنب آخر هو برئ منه، حتى تثبت إدانته بما اتهم به بالدليل الشرعى!٠

...فهل من دليل شرعى على ما افتروه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عدم عصمته؟! ولكن أنى لأعداء الإسلام، وخصوم السنة المطهرة بدليل شرعى بعد شهادة القرآن الكريم له بالخشية والخوف من الله تعالى فى غير ما آية. منها :

قوله تعالى : { قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم } (١)٠

وقوله سبحانه : { وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم } (٢)٠

وهذا وإن كان أمراً من الله عز وجل أن يقول ذلك، فهو أيضاً تقرير لحقيقة حاله - صلى الله عليه وسلم -، ووصف له فى المعنى بتلك الصفة الإيمانية العليا٠ وفى الآية أيضاً شهادة له - صلى الله عليه وسلم - بأنه ما أطاع أهل الكفر فى أهوائهم؛ وقد كان أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام كلهم بمحل الخشية والخوف من الله تعالى، كما وصفهم بذلك بقوله : { الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً } (٣) وخوفهم ليس خوف معصية وإساءة، وإنما هو خوف إعظام وتبجيل٠

ونبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو سيد الأنبياء وخاتمهم وأفضلهم، فهو معهم على ذلك الخُلُق، وتشمله هذه الآية شمولاً أولياً، لأنها فى صدر الحديث عنه، فهى شهادة قرآنية إلهية له - صلى الله عليه وسلم - بهذا الخُلُق العظيم(١)٠ وقد دعم هذه الشهادة، الشواهد الكثيرة من الأحاديث الشريفة من واقع حياته - صلى الله عليه وسلم -، ومن تلك الشواهد قوله - صلى الله عليه وسلم - : "ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه؟ فوالله إنى لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية"(٢) وفى رواية قال : "أما والله إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له"(٣)٠وفى الإخلاص لله عز وجل، شهد له بذلك

القرآن الكريم حيث قص قوله - صلى الله عليه وسلم - وهو يخاطب أهل الكتاب : { قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون } (١) فهو - صلى الله عليه وسلم - يخبر عن نفسه بأنه مخلص لله تعالى فى دينه وعبادته، وهو الصادق الأمين، وقد أقره القرآن الكريم على ذلك، فحكى مقالته على سبيل الإقرار والاعتماد والإشادة، مما يدل على أن هذا الخلق العظيم قد كان مستحكماً فيه - صلى الله عليه وسلم - فى كل أحواله، كما هو شأنه فى كل خُلُق عظيم، وما جاء فى قوله تعالى : { فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك } (٢) فالشرط فى الآية لا يقتضى الوقوع ولا الجواز على ما سيأتى تفصيله بعد قليل. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال فى تفسير الآية : "لم يشك النبى - صلى الله عليه وسلم - ولم يسأل" وعامة المفسرين على هذا، وقالوا : وفى السورة نفسها ما دل على هذا التأويل، قال تعالى : { قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين } (٣) فهذا تقرير لحقيقة حاله - صلى الله عليه وسلم -، وشهادة له بأنه ما شك فيما أنزل إليه، ولا سأل أهل الكتاب، وكان من عباد الله المؤمنين المخلصين٠

وفى إخلاصه فى عبادته لله تعالى يقول عز وجل : { قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين } (٤) فهذا القرآن الكريم يلقن النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن للملأ هذه الحقيقة الكامنة فيه لما علمها الله تعالى منه٠وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يطبق هذا التوجيه القرآنى، فكان يقول عند قيامه إلى الصلاة "وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين إن صلاتى ونسكى ومحياى وممات لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين"(١)٠

فهل بعد كل هذه الشهادات، يصح قول أعداء الإسلام، وخصوم السيرة العطرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غير معصوم من الشرك والشك؟!

ثانياً : الأوامر والنواهى الواردة فى القرآن الكريم فى حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، هى أوامر ونواهى إرشاد وإعلام على جهة الوصية والنصيحة، وهى أحد دلائل العصمة، فوجودها لا يخل بالعصمة بناء على ما تقدم فى تعريف العصمة، فى بقاء الاختيار فى أفعالهم تحقيقاً للابتلاء(٢)٠

ثالثاً : لله عز وجل أن يؤدب أنبياءه وأصفياءه، ويطلبهم بالنقير والقطمير من غير أن يلحقهم فى ذلك نقص من كمالهم، ولا غض من أقدارهم، حتى يتمحصوا للعبودية لله عز وجل٠

...ألا ترى كيف نهى الله تعالى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن النظر لبعض المباحات فقال : { لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين. وقل إنى أنا النذير المبين } (٣) مع قوله تعالى فى مقام آخر : { قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق } (٤)٠

فتأمل كيف أن الله عز وجل لم يحرم التمتع بالزينة، وأكل الطيبات إذا كانت من كسب الحلال، ومع ذلك نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن النظر إلى زينة الحياة الدنيا، وهى من المباحات، فكيف يحرم النظر إليها؟! "إن ذلك ما هو إلا لأن الله تعالى أخذ الأنبياء بمثاقيل الذر لقربهم عنده، وحضورهم، وتجاوز عن العامة أمثال ذلك، فإن الزلة على بساط الآداب، ليست كالذنب على الباب، كما لا يخفى على أولى الألباب، ممن قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين"(١)٠

وتأمل قوله - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة : "إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين"(٢) يعنى : الإشارة بالعين فى الأوامر حتى يفصح بها، والإشارة بالعين فى الأوامر مباحة لغير الأنبياء، لكن نهى عنها الأنبياء تنزهاً وتأكيداً لرفع الالتباس"(٣)٠ إن رب العزة يأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - بما يشاء، وإن استحال تركه، نحو قوله تعالى : { يا أيها النبى اتق الله } (١) وقوله سبحانه : { فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر } (٢) وقوله عز وجل : { واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله } (٣) وقد كان - صلى الله عليه وسلم - من أتقى وأخشى خلق الله عز وجل(٤) وما قهر يتيماً، وما نهر سائلاً، وإنما كان مثالاً أعلى للبذل والعطاء حتى شهد له ربه عز وجل بذلك بقوله : { فلا أقسم بما تبصرون. ومالا تبصرون. إنه لقول رسول كريم } (٥) وهو ما شهدت به سيرته العطرة قبل أن يأتيه وحى الله تعالى وبعده٠...فقد وصفته خديجة رضى الله عنها بقولها : "إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل(١) وتُكسب(٢) المعدوم، وتقرى الضيق، وتعين على نوائب الحق"(٣) فهى تصفه بهذه الصفات البالغة عظمة وخطورة، التى كان عليها قبل بعثته ورسالته، ولم يكن قد تحمل أعباء أمته، ولا قد أضفت عليه النبوة زيادة كمال وعظمة، فكيف به بعد ذلك كله؟! لا جرم أن كرمه - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك سيكون بالغاً ذروة الذرى فى كرم الأنبياء وسائر البشر، وهو ما دلت عليه الدلائل النقلية الكثيرة منها ما روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : "ما سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً قط فقال : لا"(٤) وهو ما يؤكد ما سبق من أن رب العزة يأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بما شاء، وإن استحال عليه تركه، وَمَنْ عِنْدَهُ خلاف ذلك فليأتنا به؟!

كما أن رب العزة ينهى رسوله - صلى الله عليه وسلم - عما يشاء، وإن لم يكن وقوعه منه كما قال تعالى : { ولا تمنن تستكثر } (١) أى لا تعط شيئاً لتطلب أكثر منه، لأنه طمع لا يليق بك، بل اعط لربك، واقصد به وجهه(٢) وهكذا كان خلقه - صلى الله عليه وسلم -٠

وقال سبحانه : { ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه } (٣) وما كان طردهم - صلى الله عليه وسلم - من مجلسه، وما كان من الظالمين أى ممن ظلمهم بطردهم، لأنه لم يقع منه ذلك٠ فعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : كنا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ستة نفر فقال المشركون للنبى - صلى الله عليه وسلم - : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل، وبلال ورجلان لست أسميهما. فوقع فى نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما شاء الله أن يقع. فحدث نفسه. فأنزل الله عز وجل : { ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه } (٤)٠

وهذا أصح ما روى فى سبب نزولها. وعند الحاكم فى مستدركه جاء هذا الحديث عن سعد أيضاً ولم يذكر فيه ما جاء فى رواية مسلم من قول سعد "فوقع فى نفس النبى - صلى الله عليه وسلم - ما شاء الله أن يقع. فحدث نفسه، فنزلت الآية"٠ وإنما الذى جاء فى حديث الحاكم أن سعداً قال : "نزلت هذه الآية فى خمس من قريش أنا وابن مسعود فيهم، فقالت قريش للنبى - صلى الله عليه وسلم - : لو طردت هؤلاء عنك جالسناك! تدنى هؤلاء دوننا، فنزلت { ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه } ... إلى قوله... { أليس الله بأعلم بالشاكرين } (١) ولا يخلو هذا من الإشعار الذى أشعر به حديث مسلم فى كلام سعد، وإن كان حديث مسلم أصرح فى الإشعار من حديث الحاكم٠

ولعل حديث الحاكم دخله شئ من الاختصار، أو أن حديث مسلم روى بالمعنى فدخله شئ من التفصيل٠ وحديث سعد - عند مسلم - صريح فى أن العتاب فى الآية وقع على ما حدث به النبى - صلى الله عليه وسلم - نفسه. وهذا على فرض التسليم به لا يقدح فى عصمته - صلى الله عليه وسلم -، لأن همه - صلى الله عليه وسلم - بذلك كان ابتغاء مرضاة الله تعالى، برجاء إسلام قومه، وذلك لا يضر فى نفس الوقت أصحابه رضى الله عنهم لعلمه - صلى الله عليه وسلم - بأحوالهم ورضاهم بما يرضاه(٢) وإلا فما ورد على لسان سعد من همه - صلى الله عليه وسلم - بالاستجابة لاقتراحهم لا حجة فيه، فقد أخبر بحسب ظنه، وأخبر عن أمر لا يعلمه إلا علام الغيوب المطلع على أسرار قلوب خلقه٠

ويؤكد أن الإخبار عن هذا الهم بحسب ظن الراوى، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كان ليطردهم، ما أنزل عليه - صلى الله عليه وسلم - من قبل آية الأنعام، مما جاء على لسان نوح عليه السلام جواباً على مثل اقتراح كفار قريش. قال تعالى : { وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى آراكم قوماً تجهلون. ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون } (٣)٠ وهذا ما تؤكده الروايات السابقة، وشواهدها من حديث ابن مسعود رضى الله عنه(١) وخباب رضى الله عنه(٢) حيث لم يرد فى شئ منها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طرد أحداً من أصحابه فى مجلسه٠

بل الروايات جميعها على أنه بمجرد اقتراح أهل الشرك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لهم يوماً يجلسون معه دون الفقراء والعبيد، نزلت الآية جواباً على اقتراحهم أو سؤالهم، بنهيه - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك قال تعالى : { ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه } (٣)٠ وهذه مِنَّة من الله عز وجل على رسوله - صلى الله عليه وسلم -، حيث عاتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد العثرات الصورية، وأدب نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأشرف الآداب، وأجل الأخلاق، وعاتبه إن كان ثمَّ عتاب - قبل وقوعه ليكون بذلك أشد انتهاء عن المخالفة، ومحافظة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية والرعاية فى العصمة(٤)٠ وإذا تقرر أن الله عز وجل ينهى رسوله - صلى الله عليه وسلم - عما يشاء وإن لم يكن وقوعه منه، علمت الجواب الرابع عن هذه الشبهة وهو :

رابعاً : الأوامر والنوهى السابقة فى حقه - صلى الله عليه وسلم - لا تقتضى الوقوع ولا الجواز فقوله تعالى : { لئن أشركت ليحبطن عملك } (١) كقوله عز وجل : { ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك } (٢) وقوله سبحانه : { أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشإِ الله يختم على قلبك } (٣) وقوله : { فإن لم تفعل فما بلغت رسالته } (٤) وقوله : { وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله } (٥) وقوله : { قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين } (٦) وقوله : { ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين } (٧) وقوله : { فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك } (٨) فكل هذا شرط، والشرط لا يقتضى الوقوع ولا الجواز، إذ لا يصح ولا يجوز على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أن يشرك، ولا أن يدعو من دون الله أحداً، ولا أن يخالف أمر ربه عز وجل، ولا أن يتقول على الله مالم يقل، أو يفترى على الله شيئاً، أو يضل، أو يختم على قلبه، أو يشك٠

فمثال هذه الآيات إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين(٩) أى أن الشرط فى الآيات السابقة فى حقه عز وجل، وفى حقه - صلى الله عليه وسلم -، وحق غيره، معلق بمستحيل، فكما

لا تنقسم الخمسة على متساويين، فكذلك الشرط فى الآيات السابقة لا يكون منه - صلى الله عليه وسلم -، لا وقوعاً ولا جوازاً٠

خامساً : وقيل فى الجواب عن الآيات التى معنا، أن الخطاب فى الظاهر فيها للنبى - صلى الله عليه وسلم - والمراد بها غيره، إذ هو معصوم من مخالفة الأوامر، وارتكاب النواهى الواردة فى الآيات، ومستحيل عليه فعلها، لعصمة الله عز وجل له، وإنما هذا إفهام لغيره من المسلمين، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وهو رسول رب العالمين، ذو المنزلة الرفيعة، والمقام الأسمى عند الله عزوجل، إن افترض وقوع ذلك منه، فإن الله تعالى يجازيه على ما فرط، فكيف إذا فعل ذلك أحد من المؤمنين؟! فسيلقى عقابه من باب أولى، وذلك أيضاً إيضاح لقدرة الله عزوجل، وأنه عدل، ولا يحابى أحداً من خلقه فليس أحد من المشركين بمأمن من عذابه تعالى حتى ولو كان نبياً، وهنا يفهم المؤمنون عامة، هذه الحقائق، فيرتدعون عن المعاصى والذنوب والآثام، خوفاً منه تعالى وخشية، مادام سبحانه لا يستثنى أحداً من عذابه، إن أشرك.. حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ولكنهم لا يشركون لعصمة الله عز وجل لهم(١)٠

ومن ظن بأن الله تعالى يمكن أن يُقدِّر على الأنبياء، وعلى خاتمهم - صلى الله عليه وسلم - ارتكاب الكبائر من الكفر والشرك والشك أو نحو ذلك، فقد ظن السوء بربه، أعوذ بالله تعالى من الخزى والخذلان، وسوء الخاتمة والمنقلب أهـ٠ والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم.

المطلب الرابع : شبهتهم حول آيات ورد فيها مخاطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتعرض الشيطان له والجواب عنها

زعم أعداء السنة المطهرة، والسيرة العطرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غير معصوم من الشيطان، واستدلوا على ذلك بآيات ورد فيها مخاطبة النبى - صلى الله عليه وسلم - بتعرض الشيطان له بالوسوسة، وتسببه فى سهوه، نحو قوله تعالى : { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم } (١) وقوله عز وجل : { وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين } (٢) وقوله سبحانه : { وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته } (٣)٠

ويجاب عن ما سبق بما يلى :

أولاً : التعلق بظاهر الآيات السابقة على عدم عصمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الشيطان لا حجة فيه لهم، إذ لم يسلط الشيطان على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وعلى سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بأكثر من التعرض لهم، دون أن يكون له قدرة على إلحاق أى ضرر يضر بالدين٠

وعصمة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كيد إبليس وجنوده هو وسائر الأنبياء، ثابتة لهم بكتاب الله عز وجل، فهم على رأس عباد الله المخلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم لقوله : { إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً } (١) وقد تقدم تفصيل عصمته - صلى الله عليه وسلم - من الشيطان الرجيم فى قلبه وعقيدته وخلقه منذ الصغر بنزع العلقة السوداء - حظ الشيطان - من قلبه - صلى الله عليه وسلم - وعلى هذا إجماع الأمة، كما قال القاضى عياض : "واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم - من الشيطان وكفايته منه، لا فى جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس"(٢)٠

وهو بذلك يبين حقيقة العصمة من الشيطان، وأنها لا تتعارض مع تعرض الشيطان لخاطره - صلى الله عليه وسلم - بالوساوس٠ واستدل القاضى على ذلك بحديث ابن مسعود مرفوعاً : "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة، قالوا : وإياك يا رسول الله؟ قال : وإياى، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم. فلا يأمرنى إلا بخير"(٣)٠

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بتصدى الشياطين له فى غير موطن رغبة فى إطفاء نوره، وإماتة نفسه الشريفة، وإدخال شغل عليه، إذ يئسو من إغوائه فانقلبوا خاسرين، كتعرضه له فى صلاته فأخذه النبى - صلى الله عليه وسلم - وأسره(١) وقد سبق ذكر نماذج من هذه الأحاديث(٢) التى تتفق فى ظاهرها مع الآيات التى استدل بها خصوم السيرة العطرة على عدم عصمته - صلى الله عليه وسلم - من الشيطان، دون أن يفهموا حقيقة ظاهر هذه الآيات، وهو : أن المراد بقوله تعالى : { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم } (٣) أى يتعرض لك الشيطان بأدنى وسوسة - إذ النزغ أدنى الوسوسة، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، يكفى أمرك، ويكون سبب تمام عصمتك(٤)، إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له، ولم يجعل له قدرة عليه(٥) وهو ما أكدته الأحاديث المشار إليها٠

ثانياً : ما يتوهم من قدرة الشيطان على النبى - صلى الله عليه وسلم - حيث أسند النسيان بسبب الشيطان إلى ضمير خطابه - صلى الله عليه وسلم - فى قوله تعالى : { وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين } (٦)٠...فليس فى الآية دليل على تسلط الشيطان على النبى

- صلى الله عليه وسلم -، لأن فعل الشيطان فى هذا النسيان، لا يعدو أكثر من شغل خاطره - صلى الله عليه وسلم - وتذكيره أكثر فأكثر بحرصه على إسلام قومه، مع شدة كفرهم وعنادهم، وطعنهم فى آيات الله عز وجل، فيكون شغله وتذكيره بهذا الحرص، سبباً فى نسيان الإعراض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غير حديث القرآن الكريم، وهذا ما يقتضيه سياق الآية الكريمة : { وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين } (١) كما أن هذا المعنى هو ما يقتضيه واقع حال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته٠

والنسيان فى هذه الحالة لا طلب عليه فى الشرع، ولا ذم بالإجماع، كما أنه لا يتعارض مع عصمته - صلى الله عليه وسلم -٠ فالسهو والنسيان من الأنبياء فى الأفعال البلاغية، والأحكام الشرعية جائز فى حقهم، وهو ظاهر القرآن الكريم، والسنة النبوية، وهو مذهب جمهور العلماء من الفقهاء والمتكلمين(٢)٠ وفرقوا بين ذلك، وبين السهو فى الأقوال البلاغية : فأجمعوا على منعه، كما أجمعوا على امتناع تعمده، لقيام المعجزة على الصدق فى القول، ومخالفة ذلك تناقضها٠...أما السهو فى الأفعال البلاغية، فغير مناقض لها ولا قادح فى النبوة، بل غلطات الفعل، وغفلات القلب من سمات البشر، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : "إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى"(١) وحالة النسيان والسهو هنا - فى الأفعال البلاغية - فى حقه - صلى الله عليه وسلم - سبب إفادة علم، وتقرير شرع، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : "إنى لأَنسْىَ، أو أُنسَىَ لأَسُن"(٢) أى : إنما أدفع إلى النسيان لسوق الناس بالهداية إلى طريق مستقيم، وأبين لهم ما يحتاجون أن يفعلوا إذا عرض لهم النسيان(٣)٠

وهذه الحالة زيادة له فى التبليغ، وتمام عليه فى النعمة، بعيدة عن سمات النقص، وأغراض الطعن، فإن القائلين بتجويز ذلك يشترطون أن الرسل لا تقر على السهو والغلط، بل ينبهون عليه، ويعرفون حكمه بالفور على قول بعضهم وهو الصحيح، وقبل انقراضهم على قول الآخرين٠ ...وأما ما ليس طريقه البلاغ، ولا بيان الأحكام من أفعاله - صلى الله عليه وسلم -، وما يختص به من أمور دينه، وأذكار قلبه مما لم يفعله ليتبع فيه. فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها، ولحوق الفترات، والغفلات بقلبه، وذلك مما كلفه من مقاساة الخلق، وسياسات الأمة، ومعاناة الأهل، وملاحظة الأعداء، ولكن ليس على سبيل التكرار، ولا الاتصال، بل على سبيل الندور(١) كما قال - صلى الله عليه وسلم - : "إنه ليغان على قلبى، وإنى لأستغفر الله، فى اليوم مائة مرة"(٢) وفى رواية : "فى اليوم أكثر من سبعين مرة"(٣)٠

والغين" بالغين المعجمة الغيم، والمراد هنا ما يتغشى القلب من السهو الذى لا يخلوا منه البشر(٤) وذكر العلماء عدة أقوال فى المراد بالحديث منها ما يلى :

قال القاضى عياض : المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذى كان شأنه الدوام عليه، فإذا افتر عنه أو غفل عد ذلك ذنباً، واستغفر منه٠ أن الغين همه بسبب أمته وما اطلع عليه من أحوالها بعده، فيستغفر لهم، وسببه اشتغاله بالنظر فى مصالح أمته وأمورهم، ومحاربة العدو ومداراته، وتأليف المؤلفة، ونحو ذلك فيشتغل بذلك عن عظيم مقامه، فيراه ذنباً بالنسبة إلى عظيم منزلته. وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال، فهى نزول عن عالى درجته، ورفيع مقامه من حضوره مع الله تعالى ومشاهدته ومراقبته وفراغه مما سواه، فيستغفر لذلك٠

أن الغين كينة التى تغشى قلبه، لقوله تعالى : { ثم أنزل الله سكينته على رسوله } (١) ويكون استغفاره إظهاراً للعبودية والافتقار، وملازمة الخشوع وشكراً لما أولاه(٢)٠

أن الغين حاله خشية وإعظام، والاستغفار شكرها، ومن ثمَّ قيل : خوف الأنبياء والملائكة خوف إجلال وإعظام، وإن كانوا آمنين عذاب الله تعالى٠

أن الغين ليست حالة نقص فى حاله - صلى الله عليه وسلم -، بل هو كمال أو تتمة كمال ومثال ذلك : بجفن العين حين يسبل ليدفع القذى عن العين مثلاً، فإنه يمنع العين من الرؤية، فهو من هذه الحيثية نقص، وفى الحقيقة هو كمال. فهكذا بصيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - متعرضة للأغيرة الثائرة من أنفاس الأغيار، فدعت الحاجة إلى الستر على حدقة بصيرته صيانة لها، ووقاية عن ذلك(٣)٠

قلت : والأقوال السابقة معناها محتمل، وجائزة فى حقه - صلى الله عليه وسلم -، ولا تناقض عصمته. أهـ. والله أعلم٠

وأما قوله حين نام عن الصلاة يوم الوادى لما عاد من خيبر أو من الحديبية و بطريق تبوك روايات(٤) : "فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان"(٥) وفى رواية قال - صلى الله عليه وسلم - : "إن هذا واد به شيطان"(٦)٠

فهذا الحديث ليس فيه ذكر لتسلط الشيطان عليه - صلى الله عليه وسلم -، ولا وسوسته له، ولا يصح الطعن فى عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى ظاهر هذا الحديث، لأنه - صلى الله عليه وسلم - بين على من تسلط الشيطان بقوله - صلى الله عليه وسلم - : "إن الشيطان أتى بلالاً، وهو قائم يصلى، فأضجعه، فلم يزل يهدئه(١) كما يهدأ الصبى حتى نام"(٢)، فظهر من

ذلك أن تسلط الشيطان فى ذلك الوادى، إنما كان على بلال الموكل بمراقبة طلوع الفجر ليوقظهم، كما جاء فى حديث أبى هريرة السابق، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قفل من غزوة خيبر، سار ليلة، حتى إذا أدركه الكرى(٣) عرس(٤) وقال لبلال : "اكلأ(٥) لنا الليل" فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه. فلما تقارب الفجر، استند بلال إلى راحلته مواجهة الفجر، فغلبت بلالاً عيناه، وهو مستند إلى راحلته. فلم يستيقظ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولا بلال، ولا أحد من أصحابه، حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أولهم استيقاظاً"(٦)٠

فإن قيل : كيف نام النبى - صلى الله عليه وسلم - عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس مع قوله - صلى الله عليه وسلم - : "إن عينى تنامان، ولا ينام قلبى"(١) فجوابه من وجهين :

١- أصحهما وأشهرهما : أنه لا منافاة بينهما، لأن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به كالحدث والألم ونحوهما، ولا يدرك طلوع الفجر وغيره مما يتعلق بالعين، وإنما يدرك ذلك بالعين، والعين نائمة، وإن كان القلب يقظان٠

٢- أنه - صلى الله عليه وسلم - كان له حالان : أحدهما ينام فيه القلب، وصادف هذا الموضع. والثانى : لا ينام، وهذا هو الغالب من أحواله. وهذا التأويل ضعيف، والصحيح المعتمد هو الأول(٢)٠

وقريب من الأول، من قال : إن القلب قد يحصل له السهو فى اليقظة لمصلحة التشريع، ففى النوم بطريق الأولى، أو على السواء(١) ويؤيد ذلك ما جاء فى رواية أبى قتادة رضى الله عنه(٢) قال : "فجعل بعضنا يهمس إلى بعض! ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا فى صلاتنا؟ ثم قال : أما لكم فِيَّ أُسوَةٌ؟ ثم قال : أما إنه ليس فى النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة، حتى يجئ وقت الصلاة الأخرى. فمن فعل ذلك فليصلها حتى ينتبه لها. فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها"(٣)٠

والكلام فيما سبق من ظاهر تسلط الشيطان على بلال، موجه إلى أن جملة : "إن هذا وادٍ به شيطان" تنبيهاً على سبب النوم عن الصلاة، وهو تنويم الموكل بحراسة الوقت٠

أما إن جعلنا جملة : "إن هذا واد به شيطان" تنبيهاً عن سبب الرحيل عن الوادى، وعلة لترك الصلاة به، على ما جاء فى رواية مالك فى الموطأ(٤) فلا اعتراض بهذا الحديث على عدم عصمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الشيطان(٥) أهـ٠

المطلب الخامس : شبهتهم حول آيات ورد فيها معاتبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والجواب عنها

مما استدل به الطاعنون فى عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم - وزعموه أدلة على صدور وجواز الكبائر والصغائر من الذنوب عنه - صلى الله عليه وسلم -. ما ورد فى القرآن الكريم من آيات ظاهرها عتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحو قوله تعالى : { عبس وتولى، أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى وهو يغشى. فأنت عنه تلهى } (١) وقوله سبحانه : { ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض. تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم } (٢) وقوله عز وجل : { وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه } (٣) وقوله : { يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم } (٤) وقوله : { عفا الله عنك لم أذنت لهم } (٥)

ويجاب عن ما سبق إجمالاً بما يلى :

أولاً : إن عتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الوارد فى القرآن الكريم، هو فى الظاهر عتاب، وفى الحقيقة كرامة وقربة لله عز وجل، وتنبيه لغيرهم ممن ليس فى درجتهم من البشر، بمؤاخذتهم بذلك، فيستشعروا الحذر، ويلتزموا الشكر على النعم، والصبر على المحن، والتوبة عند الزلة(١)٠

ثانياً : أن لله تعالى أن يعتب أنبياءه وأصفياءه، ويؤدبهم، ويطلبهم بالنقير والقطمير من غير أن يلحقهم فى ذلك نقص من كمالهم، ولا غض من أقدارهم، حتى يتمحصوا للعبودية لله عزوجل(٢)٠

ثالثاً : أن غاية أقوال الأنبياء وأفعالهم التى وقع فيها العتاب من الله عز وجل لمن عاتبه منهم، أن تكون على فعل مباح، كان غيره من المباحات أولى منه فى حق مناصبهم السنية٠

رابعاً : المباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح فى عصمتهم ومنزلتهم، فهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات، مما يتقون به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أخذ على هذه السبيل التحق طاعة، وصار قربة(٣)٠

خامساً : أنه ليس كل من أتى ما يلام عليه يقع لومة، فاللوم قد يكون عتاباً، وقد يكون ذماً، فإن صح وقوع لومه، كان من الله عتاباً له لا ذماً، إذ المعاتب محبور(٤) والمذموم مدحور، فاعلم - رحمك الله - صحة التفرقة بين اللوم والذم قال الشاعر :

لعل عتبك محمود عواقبه ... فربما صحت الأجسام بالعلل(٥)٠

إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقى العتاب(٦)٠

سادساً : أن العتاب فيما قيل أنه عوتب عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، إنما كان على ما حَكَمَ فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالاجتهاد، والاجتهاد محتمل الخطأ، فكان تصحيح الخطأ فى اجتهاده من الله عز وجل، بتوجيهه - صلى الله عليه وسلم - إلى الأخذ بالصوب فعاد الحكم بذلك إلى الوحى٠

سابعاً : عدم ورود نهى عما عوتب فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى يكون عتابهم ثمَّ ذم٠

ثامناً : إنه ما من آية ظاهرها عتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا وهى واردة فى مقام المنَّة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبيان عظيم فضله ومكانته عند ربه عز وجل بأعظم ما يكون البيان٠[٩]

بيان كذب المدعو بنتائوور بخصوص مخطوط سمرقند

إدعى الكاذب بنتائوور أنه أرسل إلى مكتبة سمرقند خطاباً ودفع خمسة عشر دولاراً قيمة تصوير مخطوط المصحف الشريف مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ,في محاولة منه وممن هم خلفه للطعن في كتاب الله , ولكنهم نسوا وعموا عن أن الله جل وعلا قد تعهد بحفظ هذا الكتاب منذ نزول جبريل به على سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم وحتى قيام الساعة ولقد تبين لنا كذبه من عدة وجوه

أولا : أرسلنا إلى إخواننا بسمرقند للإستفسار عن المخطوط فأفادونا بالتالي :

بالفعل كان هذا المصحف موجودا بسمرقند ولكنه نقل إلى بطرسبرج عاصمة روسيا القيصرية وبعد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ ثم نقل إلى تركستان وهو يوجد الآن في طشقند فيبدو أن الكاذب بنتائور قد أرسل الخطاب قبل سنة ١٩١٧ حين كان المصحف بسمرقند أو أن من طلبوا منه تزوير هذا البحث أخطأوا في الإسم فاشتبه عليهم اسم سمرقند وطشقند

[٩] زد شبهات حول عصمة النبي (ص) ٤/٨-٣/١٠

ولعلم الجاهل بنتائور أنه توجد نسخة مصورة من هذا المصحف الشريف في قاعة القران الكريم بدار الكتب المصرية تم تصويرها عن الأصل الموجود بطشقند على يد المصور الروسي (بلوساركس) فإن أراد كذباً منمقاً كان أولى به أن يدعي تصوير نسخة القاهرة .

ثم لعلمك أيها الجاهل أن مخطوط مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه , موجود بالقاهرة , وأما الموجود بطشقند فيسميه العلماء المصحف المنسوب إلى عثمان , لأنهم يدققون في الفاظهم , ومخطوطات المصحف الشريف موجودة بكل متاحف ومكتبات العالم بعدد لا حصر له .ويبدو أنك التقط أي مخطوط لتصب على أسماعنا سخافاتك التي قلتها

ثانياً : علم قراءة وتحقيق المخطوطات هو علم يدرس بالجامعات والمعاهد وهو ما لا نظن أن الجاهل بنتائور على علم به على الإطلاق أو أنه قد سمع به . وحسب أصول هذا العلم أيها الجاهل فإن كافة الكتب القديمة كانت تكتب بخط اليد حيث لا طباعة وقتها ولما كان البشر لا يخلوا من الأخطاء والسهو مهما بلغت دقتهم , لهذا فجزء من دراسة هذا العلم هو دراسة طرقهم في التصحيح عند وقوع الخطأ أو السهو أو السقط - ولا أدري أتفهم معنى هذه المصطلحات أم لا ؟

فمن طرق التصحيح عند السهو أن يلحق المسهو عنه بالهوامش سواء كانت سفلية أم جانبية . أن تمحى الزيادات بعدة طرق منها وضع خط على الكلمة الزائدة لبيان أنها زادت بفعل خطأ الكاتب

ونسوق لك مثالا اي هكذا :

لا إله إلا إلا الله

ولأنك مثل باقي إخوانك من العلوج محرفي الكلم عن مواضعه لذلك سقت لنا قطعا من المخطوط ولم تنشر الصفحات بالكامل حتى يتبين التصحيح وأيضاً طريقة قصك للآيات من المخطوط توحي لكل ذي عقل أنك تخفي شيئا , هذا على افتراض أن مخطوطتك هي مخطوطة طشقند ولكن يأبى الله إلا أن يكشف كذبك بسهو نسيت أن تمحوه ألا وهو في الآية الأولى التي ذكرتها ببحثك (تأكل في أرض الله) وقع السهو من كاتب المخطوط فكتبها الأرض ثم وضع خطاً على حرف الام ألف ليبين أنه زائد سهواً ولكن لأنك جاهل وأراد الله أن يبين للناس كذبك وخداعك لذا لم تمح هذا الخط وأيضا جريمتك لم تكن كاملة ولجهلك العميق نسيت أن تمحو تصحيحا غير واضح في الآية (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر) فالتصحيح بجانب الايات بخط صغير مكتوب رأسياً

والمثال الثالث يا عريض القفا هو آية (وظللنا عليكم الغمام)

يبدو أنك حاولت قص الصورة لإخفاء التصحيح ولكنك تركت حرفي العين واللام بالطرف الأيسر من الصورة ليتضح بهذا كذبك وافتراءك ولأني أعرف أنك مخادع وكاذب فأنا على يقين أنك لو كنت انتبهت لعلامات التصحيح التي أسوقها لك في الصورة القادمة وهي من مخطوطك لكنت محوتها حتى تتم خدعتك لتنطلي على عوام المسلمين ومما سبق يتبين أنه إذا كان التصحيح موجوداً في البعض فهو موجود بالجميع ولكنك أخفيته لأنك مخادع ثم أنقل لك من بعض مواقعكم دفاعكم عن قولنا بالتحريف في الإنجيل , فلماذا لم تطبق ما تدعونه على نسخة المخطوط

وأنواع الأخطاء المحتمل حدوثها في أثناء عملية النسخ كثيرة مثل:

١- حذف حرف أو كلمة أو أحياناً سطر بأكمله حيث تقع العين سهواً على السطر التالي.

٢- تكرار كلمة أو سطر عن طريق السهو، وهو عكس الخطأ السابق.

٣- أخطاء هجائية لإحدى الكلمات.)

وهذا الذي ذكر بأحد مواقعكم هو نقل حرفي لعلم ابتدعه المسلمون وهو علم التثبت والتحقق والنقل , فهلا كنت متجردا في بحثك وطبقت ما تدعونه على مخطوطك ؟؟؟ بالطبع كلنا يعلم انك مخادع

ثالثا : من أصول هذا العلم أن الباحث ينشر مع بحثه توثيق المخطوط , والتوثيق وهذا ما أظن أنك لا تعلمه يكن في أول صفحة , أو آخر صفحة من المخطوط , كأختام , أو توقيعات , أو سند للمخطوط .

ولأنك مدلس فلم تنشر لنا هذا أو لأن من دفعوك لكتابة ما كتبت فقط ساقوا لك تلك الصور وطلبوا منك الكتابة فأنت عندي لست إلا مطية لمن هم خلفك .

رابعاً : وهو الأهم إليك أيها الجاهل صورة المخطوط الحقيقية , مخطوط طشقند , ومع قليل من التدقيق يتبين أنها كتبت بالخط الكوفي أيضاً ولكن يلاحظ أن رسم الحرف وانسيابيته وخط الكاتب يختلف عما هو في مخطوط الكاذب بنتائور وانظر الى المسافات بين الكلمات والسطور هل تتطابق مع مخطوط الأفاق بنتائور مما يوضح أنه مخادع.

ومن بين ما ناقشه هؤلاء المستشرقون، القضايا التالية:

١) خلق السماوات والأرض

قال الله تعالى(ما أشهدتهم خلق السماوات ولاخلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا) [الكهف ٥١] فهذا إعجاز غيبي بليغ يخبرنا أن أهم قضية سيتناولها هؤلاء المضلون هي قضية خلق السماوات والأرض فسبحان الله العليم القدير.

* قالوا إن القرآن الكريم أخبرنا في عدة سور أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وفي سورة فصلت أن أيام الخلق ثمانية فقالوا إنها هفوة بشرية ونسيان لكنهم لم يفهموا دقة بلاغة القرآن وإعجازه.

*نرد عليهم فنقول:

قال الله تعالى في سورة [الأعراف٥٤] (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام) وكذلك قال في سورة يونس والفرقان أن خلقهما كان في ستة أيام أما قوله في سورة[فصلت٩-١١] (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسا ئلين* ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين* فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها)

إذن إذا أحصينا أيام الخلق في سورة فصلت نجد ها ثمانية: يومين لخلق الأرض؛ أربعة أيام قدر فيها رزقها وبارك فيها، أيام الخلق هذه ستة أيام، ويومان آخران لخلق السماوات، إذن فهي ثمانية أيام، لكننا لو دققنا في الآية الكريمة لوجدنا بدايتها تختلف عن الآيات السابقة، فالآية بدأت بمخاطبة الكافرين الذين يجعلون لله أندادا ويجادلون فيه، أي أن الله أراد أن يخبرنا أن الذي يستخدم هذه الآية في التشكيك في القرآن هم أولئك الكافرون، الذين يريدون أن ينشروا ويذيعوا الكفر بين الناس، ويريدون أن يجعلوا لله أندادا، ثم خاطب هنا أولئك الذين سيأتون بعد قرون عديدة ليشككوا في القرآن مستخدمين هذه الآية في محاولة التشكيك، فالله تعالى يتحدث بعد ذلك عن إتمام خلق الأرض ثم يعطينا تفصيل الخلق فيقول خلق الأرض في يومين، فجعل فيها رواسي وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، إن الله تعالى بين لنا أن مدة الخلق كلها بالنسبة للأرض هي أربعة أيام

وليست ستة ولنضرب مثلا لذلك ولله المثل الأعلى؛ عندما نقول وضعت أساس العمارة في ثلاثة أشهر وأتممت بناءها في عام، هل معنى ذلك أن العمارة استغرقت عاما وثلاثة أشهر، لا، لقد أتممتها في عام ولكن جزء الأساس استغرق ثلاثة أشهر من عام البناء هنا تحدثت بالتفصيل والجزء من الكل ليس منفصلا ولا زائدا عنه لأن المرحلة الأولى جزء من الكل، إذن تفصيل الخلق جاء في سورة (فصلت) لأنه في باقي الآيات جاء مجملا ، فتحدث عن الأرض خلقها في يومين ،ثم أتم الخلق فيها بأن جعل فيها رواسي وبارك فيها أقوتها في أربعة أيام، يعني استغرقت الأرض وما فيها أربعة أيام، ثم خلق السماوات في يومين فأيام الخلق كلها ستة أيام .

٢) قضية الود.والمعروف

* قوله تعالى(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم) [المجادلة ٢٢] ثم قوله (وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) [لقمان١٥]فهنا يقول المستشرقون أن الله تعالى ينهانا عن أن نود من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءنا، وفي الآية الثانية يقول لا تودهم وصاحبهما بالمعروف فكيف يستقيم أمران مختلفان في نفس الشئ .

نرد عليهم فنقول :

إن المعروف يفعله الرجل لمن يحبه بقلبه ومن لايحب، كأن تساعد إنسانا في الطريق على الركوب أو تعطي مالا لشخص سرق منه ماله في الطريق وأنت لا تعرفه، فهنا أسديت معروفا عسى الله أن يجزيك عنه ولكن المودة مكانها القلب، انك لا تود إلا من تحب، فالمعروف لا يمس القلب ولكن المودة تمس القلب وفي المودة يكون القلب حاضرا، أما في المعروف لا يكون معه، والله لا يجعل لك قلبين في صدرك مصداقا لقوله (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) إنما امتداد المعروف هو رضاء الله تعالى، أما استعمال كلمة الود في الآية الأولى فلا تجد مثلا إنسانا مؤمنا يحب إنسانا يحارب الله ورسوله حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم فالحب من داخل القلب ومن داخل النفس، فيأتي بمسألة الوالدين وينهانا أن نستخدم العنف ضدهما لأنهم في هذه الحالة يكونون في سن كبيرة ضعفاء اقتربوا من نهاية العمر، هؤلاء الذين قدموا لنا المعروف بأنهم قاموا بتربيتنا وبالسهر علينا فيأمرنا الله بأن نحتفظ لهم بالود إن كانوا مؤمنين، أما إن حاولوا أن يدخلوا الشرك إلى قلوبنا يطالبنا الله بألا نطيعهما، ولكن نصاحبهما في الدنيا معروفا، إرضاء لله تعالى وإرضاء للجميل، ولكن القلب لا يودهم فالمعروف لمن تحبه ومن لا تحبه، أما الود فلمن تحب فقط.

ثم يمضي المستشرقون في لغوهم وإعراضهم عن القرآن الكريم :

فيقولون : في سورة[الأحقاف١٥]يقول الله تعالى(ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها)و في سورة[لقمان١٤]يقول (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن)

إن الله تعالى أوصى بالوالدين ثم ذكر الأم وحدها دون الأب ولم يوصي بالأب.

نرد عليهم قائلين :

إن الله تعالى اختص الأم بالتوصية لأنها تقوم بالجزء الغير المنظور في حياة الابن أو غير المدرك عقلا لأن الطفل وهو صغير في الرضاعة وفي الحمل والولادة وحتى يبلغ ويعقل؛ الأم هي التي تقدم كل شيء هي التي تسهر ترضعه، وهي التي تحمل، وتلد، أما إذا كبر وعقل.. من الذي يجد أمامه..؟أباه ، طبعا إذا أراد شيئا فان أباه هو من يحققه له، إذا أراد مالا أو شراء شيء، كل هذا يقوم به الأب، إذن فضل الأب ظاهرا أمامه، أما فضل الأم فهو مستتر، لهذا وصى الله تعالى بالأم أكثر من الأب لأن الطفل حينما يحقق له أبوه كل رغباته يحس بفضل أبيه عليه، ولكنه ناذرا ما يقدر التعب الذي تعبته أمه، لذلك وصى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بصحبة الأم في السفر قائلا (أمك، أمك ، أمك، ثم أبوك) .

٣) (أتى أمر الله فلا تستعجلوه..)

يقولون أن الله تعالى يقول في سورة[النحل١] (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)كيف يمكن أن يقول الله سبحانه وتعالى أتى، ثم يقول لا تستعجلوه، أتى فعل ماض لأنه حدث، ولا تستعجلوه مستقبل، كيف يمضي هذا مع ذلك

نرد عليهم فنقول :

أنت حين تتحدث عن الله تعالى فيجب أن تضع في عقلك وذهنك وتفكيرك أن الله ليس كمثله شيء، أتى هذه في علم الله حدث وتم وانتهى في علم الله سبحانه، في علم اليقين، ولكن الأشياء تخرج من علم الله سبحانه إلى علم البشر بكلمة كن، الذي هو الأمر الذي يحمل التنفيذ، فالله سبحانه وتعالى عنده علم الساعة ومادام قد تقرر فليس هناك في الدنيا قوة تستطيع أن تمنع حدوثه، فلا تطلبوه بكلمة كن وأنتم في عجلة .لماذا ؟ لأن المؤمن الحقيقي إذا كان يخشى شيئا فانه يخشى يوم الساعة ويوم الحساب، يخشى عدل الله سبحانه الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) الكهف ٤٩] فالإنسان المؤمن يخاف يوم الحساب ويخشاه مهما كان إيمانه، ويرتعد من هول ذلك اليوم، أما الكافر المتحدي لا يعرف معنى الآخرة والحساب فهو يستعجل لذلك ، قال الله تعالى (أتى أمر الله) أي أن الساعة تقررت وانتهى أمرها،

ثم الأمر فلا تستعجلوه، أي لا تتعجلوا يوم الحساب لأنكم تجهلون ما فيه من أهوال فهي بالنسبة لله تم وانتهى، ولكنه بالنسبة لي أنا مستقبل، فليس هناك أي تناقض بين استخدام الماضي والمستقبل حينما يقول الله تعالى كلمة كن وينفخ في الصور، لا يملك إنسان أن يمنع الله تعالى من تنفيذ أمر قدره مادام قد قال أتى، لا أحد يملك مقومات الغد ولكن الذي يملكها هو الله، إذن فقد تم فعلا ولكنه محجوب عني لذلك قال الله تعالى (فلا تستعجلوه) .

٤) هل رأى محمد ..؟؟؟

في قوله تعالى (ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) [الفيل ١]يقول المستشرقون أن محمدا ولد عام الفيل فكيف يكون التعبير (ألم تر) وهو لم ير شيئا .

نرد عليهم بقولنا :

إن هذه قضية من قضايا الإيمان ما يقوله الله سبحانه للإنسان المؤمن هو رؤيا صادقة فعندما يقول الله *ألم تر* معناها الرؤيا مستمرة لكل مؤمن بالله، لان الرؤيا هنا معجزة كبرى، والله يريدها أن تثبت في عقولنا لأن قضية الإيمان الكبرى هنا هي أن الله سبحانه في معجزة قد خلق من الضعف قوة ،وهذه لا يستطيع أن يفعلها إلا الله لأن الله تعالى استخدم أضعف مخلوقاته ليهزم خلقا من أقوى مخلوقاته، وهذه معجزة لا يمكن أن تتم إلا على يده سبحانه، فشكك المستشرقون في هذه القضية وادعوا أن الذي فتك بجيش أبرهة هو الأمراض والجراثيم، لكن عام الفيل حدث عند مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعث عليه السلام في سن الأربعين، وكان في ذلك الوقت من هم في سن الخامسة والخمسين، والسبعين، ممن رأوا عام الفيل رأي العين، فلو لم تأت هذه الطير، ولم تلق بحجارة من سجيل، ولم تجعل الجيش كعصف مأكول، لقام هؤلاء الناس وأثبتوا أن ذلك لم يقع وكذبوا محمد عليه السلام، لكنهم عاشوها وعاصروها، إن كلام الله تعالى بالنسبة للمؤمن هو يقين بمثابة الرؤيا الدائمة، لذلك قال الله تعالى (ألم تر) ولم يقل رأيت أو علمت (ألم تر) حاضر متجدد مستمر يحدث وسيحدث على مر السنين إلى يوم الساعة، انه قضية الحق ينصر الله المظلوم على الظالم مهما كانت قوة الظالم ومهما كان ضعف المظلوم.

٥) من هم الكاذبون ..؟؟؟

قوله تعالى (إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) [المنافقون١] يقول المستشرقون إن المنافقون قد شهدوا أن محمدا رسول الله وأن الله يعلم أن محمدا رسوله ويعلم أيضا أن المنافقون كاذبون كيف يكون المنافقون كاذبون وهم شهدوا بما شهد الله، كيف تكون الشهادتان متفقتين في أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومع ذلك يكون المنافقون كاذبين، مع اتفاق ما شهدوا به مع علم الله، مع أن الكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع، فهل كلام المنافقين بأن محمدا رسول الله ليس مطابقا للواقع ؟ هذا تناقض هكذا يقول المستشرقون .

نرد عليهم فنقول :

التكذيب يقع هنا على كلمة (نشهد) لأنهم قالوا نشهد أنك لرسول الله، فالتكذيب وارد على كلمة (نشهد) لأن معنى الشهادة: أننا نقول بألسنتنا ما في قلوبنا، والله يعلم أن ما في قلوبهم يخالف ما يقولونه بألسنتهم إذن فقولهم (نشهد أنك) كلمة نشهد، هم كاذبون فيها، كاذبون في أمر الشهادة لأنهم لا يشهدون ولا يؤمنون أن محمدا لرسول الله، إنما جاءوا لينافقوا بهذا الكلام لاعن صدق، ولكن عن نفاق، محمد رسول الله لا تكذيب فيها، ولكن التكذيب منصب على كلمة نشهد، وهنا فرق بين الشاهد والمشهود به، فرق تكذيب الشهادة وليس تكذيب المشهود به، والمشهود به أنك رسول الله صحيح مائة بالمائة ولكن شهادة المنافقين هي المكذبة .

٦) السؤال ليس للعلم :

إن الله تعالى يقول في الرحمان (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولاجان) [الرحمان٣٩] ويقول في [الصافات ٢٤] (وقفوهم إنهم مسؤولون) فيقول المستشرقون أن هناك تناقض، في الأولى نفي للسؤال، وفي الثانية إثبات للسؤال إذن محمد نسي .

نقول لهم : إنكم لا تعلمون أنواع السؤال: فهو نوع تسأله لتعلم، ونوع تسأله ليكون المسؤول شاهدا على نفسه، فالتلميذ حين يسأل أستاذه يسأله ليعلم ليعرف العلم، ولكن حين يسأل الأستاذ تلميذه لا يسأل للعلم، ولكن يسأله ليكون شهيدا على نفسه، لا يستطيع أن يجادل أو يقول لقد حفظت وهو لم يقرأ حرفا، فأسئلة الامتحانات التي تضعها الوزارة لا تضعها لأنها تريد أن تتعلم من الطلبة، ولكن ليكون الطالب شاهدا على نفسه فورقة الإجابة موجودة وهي شاهدة على درجة الطالب سواء (ممتاز أوضعيف) فالآية الأولى (فيومئذ لايسأل عن ذنبه انس ولا جان) فهي تنفي السؤال للمعرفة والله أعلم بذنوبهم فهو غير محتاج لأن يسأل للعلم، أو ليعرف منهم لأنه أعلم منهم، ولأن السائل أعلم من المسؤول، أما الآية الثانية (وقفوهم إنهم مسؤولون) أي إنكم ستسألون لتقروا الحقيقة والواقع في الحساب لا لتقولوا شيئا لا يعلمه الله، لتكونوا شهداء على أنفسكم،

فأين هو التناقض فالله سبحانه يتحدث عن الكافرين والمكذبين، قال تعالى (وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين* هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون *احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون* من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم* وقفوهم إنهم مسؤولون) فالسؤال هنا ليكونوا شهداء

على أنفسهم هذا الذي كنتم به تكذبون ،هذا ما عبدتم من دون الله ،هاهو وقت الحساب لتكونوا شهداء على أنفسكم .

بيان الإشكال حول القراءة المنسوبة لابن مسعود رضي الله عنه

السؤال

يوجد حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه بقراءة ابن أم عبد ـ بحثت ووجدت أن قراءة عبد الله بن مسعود هي من القراءات الشاذة؟ فلماذا لم يشارك عبد الله بن مسعود في نسخ المصحف مع أنه قال: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيما نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته؟ وجزاكم الله خيرا.

الإجابــة: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن حديث: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه بِقِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ. حديث صحيح، صححه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

أما عن كيفية التوفيق بين هذا الحديث وبين كون القراءة المنسوبة لعبد الله بن مسعود هي من القراءات الشاذة؟ فالجواب عن هذا الإشكال قد فصّله الإمام أبو محمد مكي القرطبي المالكي - المتوفى: ٤٣٧هـ - في كتابه: الإبانة عن معاني القراءات، حيث قال: فإن قيل: قد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: من أراد أن يقرأ القرآن غضا، فليقرأه بقراءة ابن أم عبد ـ يعني ابن مسعود، وعنه أنه قال: من أراد أن يسمع كلام الله غضا، كما أنزل فليسمعه من فِي ابن أم عبد ـ وقد تركت قراءة ابن مسعود اليوم، ومنع مالك وغيره أن يقرأ بالقراءة، التي تنسب إلى ابن مسعود؟ فالجواب: ما قاله الحسين بن علي الجعفي قال: إن معنى ذلك أن ابن مسعود كان يرتل القرآن، فحض النبي الناس على ترتيل القرآن بهذا القول، دليله قوله في الحديث الآخر: فليسمعه من في ابن مسعود، فحض على سماع ترتيل القرآن، وكذلك الجواب عن الحديث الذي روي عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال: من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه كما يقرأ ابن مسعود ـ قال الجعفي: معناه أنه ليس يريد به حرفه الذي يخالف المصحف، إنما أراد ترتيله إذا قرأ، حض النبي صلى الله عليه وسلم أمته على ترتيل القرآن، وقد أمر الله -تبارك وتعالى- نبيه بذلك فقال: وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ـ قلتُ: ولا ينكر أن يكون صلى الله عليه وسلم، أراد حرفه الذي كان يقرأ به،

ونحن نقرأ بذلك من قراءته، ونتولى ذلك، ونرويه، ونرغب اليوم فيه، ما لم تخالف قراءته المصحف، فإن خالف المصحف لم نكذب بها، ولم نقرأ بها؛ لأنها خارجة عن الإجماع، منقولة بخبر الآحاد، والإجماع أولى من خبر الآحاد؛ ولأنا لا نقطع أنها قراءة ابن مسعود على الحقيقة، إذ لم يصحبها إجماع، ولذلك قال مالك وغيره: القراءة التي تنسب إلى ابن مسعود، فقال: تنسب إليه، ولم يقل قراءة ابن مسعود، والشيء قد ينسب إلى الإنسان، وهو غير صحيح عنه، ولذلك قال إسماعيل القاضي: ما روي من قراءة ابن مسعود وغيره، يعني مما يخالف خط المصحف، ليس ينبغي لأحد أن يقرأ به اليوم؛ لأن الناس لا يعلمون علم يقين أنها قراءة ابن مسعود، وإنما هو شيء يرويه بعض من يحمل الحديث، ولا يجوز أن يعدل عن اليقين إلى ما لا يعلم يقينه. اهـ بتصرف بسيط. ولم يشارك عبد الله ابن مسعود في نسخ المصحف؛ لأنه كان بالكوفة، والمصاحف قد أمر عثمان بن عفان ـرضي الله عنه ـ بنسخها في المدينة المنوّرة.

قال المباركفوري في تحفة الأحوذي مبيّنا سبب عدم اختيار ابن مسعود من جملة الناسخين للمصاحف: العذرُ لعثمان ـرضي الله عنهـ في ذلك أنه فعله بالمدينة، وعبد الله بالكوفة، ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر. اهـ.

الرد على شبهة جمع المصحف على حرف واحد واعتراض ابن مسعود

السؤال

شبهة للملاحدة والمستشرقين عن جمع القرآن، والأحرف السبعة.

يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى: الْقِرَاءَاتِ السَّبْعَةَ هَلْ هِيَ حَرْفٌ مِن الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ أَمْ لَا؟

وَهَذَا النِّزَاعُ لَا بُدَّ أَنْ يُبْنَى عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ السَّائِلُ وَهُوَ أَنَّ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعَةَ هَلْ هِيَ حَرْفٌ مِن الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ أَمْ لَا؟ فَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ مِن السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَنَّهَا حَرْفٌ مِن الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ؛ بَلْ يَقُولُونَ: إنَّ مُصْحَفَ عُثْمَانَ هُوَ أَحَدُ الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ للعرضة الْآخِرَةِ الَّتِي عَرَضَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى جِبْرِيلَ، وَالْأَحَادِيثُ، وَالْآثَارُ الْمَشْهُورَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ.

لكن بالنسبة لهذا القول: هل ترك الأحرف الستة هو من تحريف القرآن أو ضياعه؟ والجواب: لا. يقول الطبري في تفسيره: فإن قال: فما بال الأحرف الأخَرِ الستة غير موجودة، إن كان الأمر في ذلك على ما وصفتَ، وقد أقرأهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أصحابه، وأمر بالقراءة بهنّ،

وأنزلهن الله من عنده على نبيه -صلى الله عليه وسلم-؟ أنسخت فرُفعت، فما الدلالة على نسخها ورَفعها؟ أم نسيتهن الأمة، فذلك تضييعُ ما قد أمروا بحفظه؟ أم ما القصةُ في ذلك؟

قيل له: لم تنسخ فترفع، ولا ضيعتها الأمة، وهي مأمورة بحفظها. ولكنّ الأمة أمرت بحفظ القرآن، وخُيّرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت.

ما الدليل على كلام الطبري أن الأمة ليست مأمورة بحفظ القرآن بجميع الأحرف؟

والجواب: هو إجماع الصحابة والمسلمين على هذا الأمر. فالشبهة حول صحة الإجماع على هـذا.

وفي المصاحف لابن أبي داود: حَدَّثَنا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو شِهَابٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: خَطَبَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} غُلُّوا مَصَاحِفَكُمْ، وَكَيْفَ تَأْمُرُونِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَى قِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَقَدْ قَرَأْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ لَيَأْتِي مَعَ الْغِلْمَانِ لَهُ ذُؤَابَتَانِ، وَاللَّهِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَ، مَا أَحَدٌ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي، وَمَا أَنَا بِخَيْرِكُمْ، وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانًا تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي لَأَتَيْتُهُ. قَالَ أَبُو وَائِلٍ: فَلَمَّا نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ جَلَسْتُ فِي الْحِلَقِ فَمَا أَحَدٌ يُنْكِرُ مَا قَالَ.

والذي يظهر لي ردًا على المستشرقين:

١- أن ابن مسعود -رضي الله عنه- لم يخالف في جواز جمع الناس على حرف واحد، وإنما رفض ترك الحرف الذي تعلمه، فهو لم يكفرهم، ويتهمهم بتحريف القرآن، بل لما كان جمع الناس على حرف واحد جائزا، وعدم الجمع كذلك جائزا، بقي على رأيه.

يقول الشاطبي في الاعتصام: فَلَمْ يُخَالِفْ فِي الْمَسْأَلَةِ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، فَإِنَّهُ امْتَنَعَ مِنْ طَرْحِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقِرَاءَةِ الْمُخَالِفَةِ لِمَصَاحِفِ عُثْمَانَ، فَتَأَمَّلْ كَلَامَهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخَالِفْ فِي جَمْعِهِ، وَإِنَّمَا خَالَفَ أَمْرًا آخَرَ.

٢- أن معارضة ابن مسعود -رضي الله عنه- لم يكن لجمع الناس على حرف واحد، بل لأنه لم يكن من لجنة نسخ المصاحف، بدليل أنه اعترض على ترك قراءته لقراءة زيد، ولو كان في الأمر تحريف وتضييع؛ لكان الاعتراض على عثمان في جمعه على حرف واحد أولى من الاعتراض على اختياره لزيد؛ لأن هذا الاعتراض الجزئي دليل الرضى بالأصل الكلي في الجمع على حرف واحد.

الإجابــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فليس في الاقتصار على حرف واحد من الأحرف السبعة تضييع لشيء من القرآن، فكل حرف منها كاف شاف، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أتاني جبرئيل وميكائيل، فجلس جبرئيل عن يميني، وجلس ميكائيل عن يساري، فقال: اقرأ على حرف، فقال: ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ القرآن على حرفين. قال: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف. قال: وكل كاف شاف. رواه النسائي وصححه الألباني.

وهذا يدل على أن الأصل هو أن يكون القرآن على حرف واحد، وأن تعدد هذه الحروف إنما هو من باب التخفيف والرخصة، وليس من باب الإلزام والإيجاب، فكيف يُنسب من تمسك بالأصل إلى التفريط والتضييع؟! وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه. رواه البخاري ومسلم. فنحن أمرنا بالقراءة بما تيسر، فمن ألزم الأمة بحفظ الحروف السبعة هو المطالب بالدليل.

وأما دليل الإجماع على صحة ما فعله عثمان -رضي الله عنه-، فهو صحيح، وما روي من مخالفة ابن مسعود فلا ينقض هذا الإجماع، لأن اعتراض ابن مسعود لم يكن على أصل فعل عثمان، وإنما على اختيار من يقوم بذلك، وما يترتب عليه من آثار، ثم إنه رجع بعد ذلك لموافقة الجماعة، ولذلك فإن ابن أبي داود في كتاب المصاحف عقد بابا في (اتفاق الناس مع عثمان على جمع المصاحف) ثم أعقبه بباب: (كراهية عبد الله بن مسعود ذلك) ثم أعقبه بباب: (رضاء عبد الله بن مسعود لجمع عثمان رضي الله عنه المصاحف) فراجعه للفائدة.

ونقل القرطبي في تفسيره عن أبي بكر الأنباري قال: ما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك، فشيء نتجه الغضب، ولا يعمل به، ولا يؤخذ به، ولا يشك في أنه -رضي الله عنه- قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم. اهـ.

وقال ابن كثير في فضائل القرآن: عثمان -رضي الله عنه- جمع الناس على قراءة واحدة؛ لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روي عن عبد الله بن مسعود شيء من التغضُّبِ بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف ... ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق، حتى قال علي بن أبي طالب: لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. اهـ.

وقال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية في جمع عثمان للناس على مصحف واحد: فجمع الناس على حرف واحد اجتماعا سائغا، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلال، ولم يكن في ذلك ترك لواجب، ولا فعل لمحظور، إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة، رخصة من الله تعالى، وقد جعل الاختيار إليهم في أي حرف اختاروه ... فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد، جمعهم الصحابة عليه. هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء، قاله ابن جرير وغيره. ومنهم من يقول: إن الترخص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام، لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولا، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرا عليهم، وهو أوفق لهم -: أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة. وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف مشتمل على الأحرف السبعة لأنه لا يجوز أن يهمل شيء من الأحرف السبعة. وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني. وترك ما سواه. وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب، وهو: أن ذلك كان جائزا لا واجبا، أو أنه صار منسوخا. اهـ.

وقال الدكتور فهد الرومي في كتاب «دراسات في علوم القرآن»: إن قيل: كيف جاز للصحابة ترك الأحرف الستة التي أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- قراءة القرآن بها، واقتصروا على حرف واحد؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة.. وإذا كان ذلك لم يكن القوم بتركهم بقية الأحرف، تاركين ما عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما يؤدون به الواجب، وهو أحد هذه الأحرف, فإذا حفظوه، ونقلوه؛ فقد فعلوا ما كلفوا به. وقد علل ابن القيم -رحمه الله تعالى- جمع الناس على حرف واحد، فأحسن حيث قال: "فلما خاف الصحابة -رضي الله عنهم- على الأمة أن يختلفوا في القرآن، ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم، وأبعد من وقوع الاختلاف، فعلوا ذلك، ومنعوا الناس من القراءة بغيره، وهذا كما لو كان للناس عدة طرق إلى البيت، وكان سلوكهم في تلك الطرق يوقعهم في التفرق والتشتيت، ويطمع فيهم العدو, فرأى الإمام جمعهم على طريق واحد، فترك بقية الطرق جاز ذلك، ولم يكن فيه إبطال لكون تلك الطرق موصلة إلى المقصود، وإن كان فيه نهي عن سلوكه لمصلحة الأمة. اهـ.

لماذا خلق الله تعالى السماوات رغم كبرها في يومين والأرض في أربعة أيام؟

السؤال

إذا كانت الأرض لا تساوي شيئًا في هذا الفضاء، كما تقول عنها ناسا، وجميع وكالات الفضاء؛ لأن هذا الفضاء يضم المليارات، أو البليارات من المجرات، والمجرة الواحدة تضم الملايين، أو البلايين من النجوم، والنجمة الواحدة منها أكبر من الأرض بملايين، أو بلايين المرات، فكيف يخلقها الله عز وجل في أربعة أيام كاملة، ويخلق باقي الكواكب، والنجوم، والسماوات السبع التي هي أكبر من هذا الفضاء بكثير في يومين فقط؟ هذا مع أن كل العناصر -مثل: الجبال، والصخور، والأحجار، والأتربة، والغازات، والهواء، والمياه، والغلاف الجوي موجودة على كثير من الكواكب الأخرى (التي ليست نجومًا) حسب كلامهم-، بل وأكبر من الأرض بعشرات، أو مئات، أو آلاف المرات، فإذا كانت هذه الأرض أصغر من ذرة في هذا الكون، فكيف يخلقها الله في أربعة أيام كاملة، وباقي الأجرام في يومين فقط؟ ثم إذا كانت الأرض بكل هذا الصغر، وأنها أقل حتى من حبة الغبار بكثير بالنسبة لباقي الأجرام، لدرجة أنها غير مرئية أبدًا من شدة صغرها، فلماذا يقرنها الله بحجم السماوات، كما في قوله تعالى: [وسع كرسيه السماوات والأرض]، [جنة عرضها السماوات والأرض]، [وجنة عرضها كعرض السماء والأرض]، هذا غير منطقي أبدًا، فالأولى أن يكتفي الله بقول: (كعرض السماء) فقط، وأنا أظن أنهم يكذبون علينا؛ لأن كلامهم لا يتطابق أبدًا مع القرآن، أليس من يصدقهم يعتبر مكذبًا للقرآن؟

الإجابــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه، أما بعد:

فأما السؤال الأول: فإنما يتجه إذا كانت مدة الخلق - طولًا أو قصرًا - متعلقة بحجم الخلق، أو سعته، أو تعقيده، أو دقته، أو نحو ذلك مما تتفاوت القدرة عليه في حق الناس. وأما الله تعالى فلم يخلق السماوات والأرض في الأيام الستة لعجزه - سبحانه وتعالى - عن خلقها في لحظة واحدة دفعة واحدة!! فليس الأمر كذلك، فلو أراد الله عز وجل خلقها في لحظة لفعل، فإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون، ولكنه سبحانه أراد - كما قال القرطبي في تفسيره: أن يعلم العباد الرفق، والتثبت في الأمور .. وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلًا. وبين بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلًا، وهذا كقوله: {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب. فاصبر على ما يقولون}، بعد أن قال: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشًا}. اهـ.

وقال أبو السعود في إرشاد العقل السليم: في خلق الأشياء مدرجًا مع القدرة على إبداعها دفعة، دليلٌ على الاختيار، واعتبارٌ للنظار، وحثٌّ على التأني في الأمور. اهـ.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمرًا تستعظمه الملائكة، ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله: {كن فيكون}.

والرابع: أنه علّم عباده التثبت، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع، أو بالاتفاق. اهـ.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فلا يصح أن يقال: لماذا خلق السماوات برغم كبرها في يومين، وخلق الأرض برغم صغرها في أربعة؟! وهذا على التسليم بتفصيل هذه المدد، وإلا فهذا موضع خلاف ونظر.

وعلى أية حال؛ فالأليق والأقرب للفهم أن ما يتعلق بالمكلفين - وهو الأرض التي يعيشون عليها - يكون محلًّا للاهتمام الزائد، والمبالغة في إثبات الحكمة؛ لأن هذا هو المتعلق المباشر بهم؛ ولهذا قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {الجاثية:١٢-١٣}.

فكأن هذا الخلق المحكم بالتسخير من الله تعالى غايته استخراج عبادتي الشكر، والتفكر، المؤدي لزيادة الإيمان، ومعرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، قال تعالى: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً {لقمان:٢٠}، وقال سبحانه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ {الحج: ٦٥}،

وهذا نفسه هو المدخل لجواب السؤال الثاني، فالأرض وإن كانت لا تمثل في سعة الكون حبة رمل في صحراء، إلا أنها بالنسبة للإنسان هي مستقره الذي يحيى فيه، ولا يستطيع العيش دونه،

فالتنويه بذكرها تذكير مباشرة بشيء محسوس لجميع بني آدم، وهو أدعى للامتنان، وشكر الله تعالى؛ ولذلك كان من المناسب أن يكون اهتمام القرآن بالحديث عنها أكبر، وأعظم من غيرها من أجزاء الكون الواسع الفسيح، كما سبق أن أشرنا إليه في الفتوى: ١٢٨٦٤٨.

وإذا تبين هذا؛ اتضح أن الكلام الذي بدأ به السائل لا يتعارض مع القرآن، وأن تصديقه لا يعتبر تكذيبًا للقرآن![١٠]

[١٠] رشيدة مقيوش